

أعلام العرب



أحمد بن طولون

بقلم

الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

مكتبة المشرقة للدراسات
التي هي في الأساس والنشر
والدراسة للدراسات والتربية

أعلام العرب

٤٨

أحمد بن طولون

بقلم

المكتورة خديجة إسماعيل كاشف

المؤسسة المصرية للكتاب

للناشر والأنباء والنشر

دار النهضة العربية

مقدمة

امتدت الفتوح العربية الاسلامية منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام في سنة ١١ هـ (٦٣٢ م) حتى اواخر العصر الأموي ، أي مدة قرن وبعض القرن . وأصبحت الأراضي التي يسيطر عليها العرب تمتد الى الهند والصين شرقا وإلى المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات غربا ، ومن البحر الأسود والبحر المتوسط وجبال البرانس شمالا إلى بحر العرب وصحاري السودان جنوبا .

ولم يكن فتح العرب فتحا حربيا وسياسيا فقط وإنما كان فتحا دينيا إذ انتشر الاسلام وأصبح دين الأغلبية في البلاد المفتوحة لأسباب كثيرة لا يتسع المقام هنا لسردها وبحثها . وكان فتح العرب أيضا فتحا لغويا فانتشرت اللغة العربية في الأقطار المفتوحة ، ثم أصبحت لغة الثقافة والفكر ولغة التخاطب لأبناء معظم تلك البلاد . ولكن أهم من ذلك كله هو الاختلاط والاندماج الذي تم بين القبائل العربية الذين استقروا في تلك الأقطار وبين أهل البلاد الأصليين سواء أكانوا من الفرس أو الشاميين أو المصريين أو الترك أو البربر أو غيرهم من الشعوب والأجناس المختلفة . أي أن معظم الأقاليم التي سيطر عليها العرب . بدأت تتعرب وتتأثر في العرب . ووضح الاختلاط قويا في العصر العباسي ، وأصبحت دولة العباسيين دولة الشعوب التي اظلتها العروبة . ولم يصبح العربي هو الذي ينتسب

الى قيس ومضر ، او الى عدنان وقحطان ، وانما أصبح العربي هو الذى يعيش فى ديار الاسلام ويتكلم العربية ويتتقف بأدائها ويفكر بلغتها . ولم يعد المجتمع العربى مجتمعا مغللا على أبناء القبائل وانما أصبح مجتمعا مفتوحا لكل الذين يتكلمون العربية ويكتبون بها ، ويتأدون بأدائها .
وكان عرب القبائل فى البداية يسمون أبناء البلاد التى فتحوها باسم الموالى وظلت هذه التسمية الى القرن الثالث والرابع الهجرى ولكن هذه التسمية بدأت تلوب وتختفى مع اختفاء أنساب القبائل المختلفة . وظهرت القوميات المختلفة واضحة قوية فكان هناك المصريون والایرانيون واهل الشام والمغاربة والأتراك ولكن الكل أصبحوا عربا . أصبح الكل يشتركون فى تاريخ واحد وتقاليد واحدة وآمال واحدة وحضارة واحدة وأصبحت العروبة عروبة اللسان والفكر . ولذلك لا نندهش اذا علمنا ان احمد بن طولون وهو تركى الأصل كان بطلا من أبطال العروبة ومؤسسا لأول دولة عربية اسلامية مستقلة فى مصر . وكان صلاح الدين الأيوبي بطلا من أبطال العروبة وهو كردى الأصل . وكان الظاهر بيبرس علما من اعلام العرب وهو مملوك تركى . وسيتعرف القارىء من فصول هذا الكتاب على الجوانب المختلفة لشخصية احمد بن طولون وعلى كفاحه فى سبيل تأسيس أول دولة مصرية عربية مستقلة ونجاحه فى ذلك الى أبعد الحدود .

دكتورة

سيدة اسماعيل كاشف

استاذة التاريخ الاسلامى

كلية البنات - جامعة عين شمس

٣٠ من ربيع الثانى ١٣٨٥

٢٧ من أغسطس ١٩٦٥

الفصل الأول
مصادر التورخ احمد بن طولون

أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر « ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م » شخصية جديرة بالدرس والاهتمام فهو مؤسس أول دولة عربية اسلامية في مصر ، وأول دولة مستقلة في مصر الاسلامية العربية ، بل أول دولة مستقلة في مصر منذ انتصار أغسطس قيصر على كليوبترا في موقعة اكتوبر سنة ٣١ ق.م واستيلائه على مصر سنة ٣٠ ق.م وقضائه نهائيا على دولة البطالسة فيها .

وعنى المؤرخون القدماء باستقصاء سيرة أحمد بن طولون ودراسة دولته وذكر أخبارها وقدموا بهذا للمؤرخ الحديث مادة لها أهمية بالغة . ولم تكن أخبار المؤرخين القدماء ورواياتهم هي كل شيء فقد ترك لنا العصر الطولوني آثارا هامة من أبرزها جامع أحمد بن طولون فضلا عما عثرنا عليه من قطع السكة الأحمدية التي تنسب الى أحمد بن طولون ، وما وجدناه في الأوراق البردية التي ترجع الى العصر الطولوني والتي نشرها المستشرقون ومن أهمهم الاستاذ النمساوي أدولف جرومان Adolf Grohmann ولعل المرجع الوحيد الحديث الذي عنى بدراسة تاريخ الدولة الطولونية دراسة علمية دقيقة مبنية على المصادر القديمة من مؤلفات وآثار ونقود وأوراق بردية هو السفر الذي أخرجه باللغة الفرنسية المرحوم الدكتور زكي محمد حسن في باريس سنة ١٩٣٣ م بعنوان « الطولونيون - دراسة لمصر الاسلامية في نهاية القرن التاسع

الميلادى ٨٦٨ - ٩٠٥ م» (١).

أما المؤرخون القدماء فنذكر منهم مؤرخى المدرسة المصرية وعلى رأسهم مؤرخ معاصر للدولة الطولونية هو أحمد بن يوسف الكاتب المعروف باسم ابن الداية والمتوفى نحو سنة ٣٣٩ هـ (٩٥١ م). وابن الداية من أصل عراقي ولد أبوه يوسف بن إبراهيم فى بغداد ، ويبدو أنه كان منوطا بالاشراف على ضياع الأمير العباسى إبراهيم بن المهدي ثم اتخذ طريقه الى مصر بعد وفاة الأمير وعاصر أحمد بن طولون فى مصر بضع سنوات ، أما ابنه أحمد فقد ولد فى مصر فى منتصف القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى (٢). وكتب أحمد بن يوسف ، أو ابن الداية ، فى التاريخ والطب والاخلاق والمنطق والفلك وغير ذلك مما يشهد بثقافته الواسعة ، وللأسف ضاعت مؤلفاته ، ولم يبق منها الا كتاب سيرة أحمد بن طولون الذى نقله لنا ابن سعيد الأندلسى فى كتاب «المغرب فى حلى المغرب» ،والذى كان قوام الكتاب الذى عقده ابن سعيد للكلام على الدولة الطولونية وسماه « كتاب الدر المكنون فى حلى دولة بنى طولون » وقد طبعت سيرة أحمد بن طولون على يد المستشرق الألمانى فولرز Vollers فى برلين - فيمار ١٨٩٤ ١٨٩٥ . وجدير بالذكر أن سيرة أحمد بن طولون أعيد طبعها

(١) انظر : Zaky Mohamed Hassan : Les Tulunides, Étude de l'Egypte musulmane à la fin du IXe Siècle, 868-905.

Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 11-12

(٢)

وتحقيقها والتعليق عليها حتى نشر فريق من أساتذة الجامعة
الجزء الأول من القسم الخاص بمصر من مخطوطة المغرب في
حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي (١) .

وكان كتاب ابن الداية هو المرجع الأساسى لسيرة أحمد بن
طولون الى أن نشر المرحوم الاستاذ محمد كرد على سنة ١٩٣٩م
مخطوطة من مخطوطات دار الكتب الظاهرية فى دمشق عنوانها
« سيرة أحمد بن طولون » ومؤلف هذه السيرة أبو محمد عبدالله
ابن محمد المدينى البلوى ، ويرجع تصنيفها الى الثلث الثانى
من القرن الرابع الهجرى . ويبدو أن المؤلف كان يرمى الى وضع
كتاب فى سيرة آل طولون « يكون أكبر شرحا وأكمل وصفا » (٢)
من كتاب ابن الداية . ولكننا رأينا بعد نشر كتاب « سيرة أحمد
ابن طولون » للبلوى أنه اقتبس نحو الخمسين قصة من قصص
ابن طولون عن ابن الداية ، ذكرها الأخير فى كتابه « سيرة ابن
طولون » و « المكافاة » (١) وزاد أربعين قصة يرجح أنها منقولة
عن النسخة الأصلية من كتاب ابن الداية وهى التى لم تصل
إلينا ، لأن الذى نقله ابن سعيد ليس الا خلاصة هذا الكتاب ،

(١) انظر : ابن سعيد الأندلسي : المغرب فى حلى المغرب . عنى بنشره
وتحقيقه والتعليق عليه الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقي ضيف والدكتورة
سيدى كاشف - مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٢

(٢) انظر « سيرة أحمد بن طولون » للبلوى ، تحقيق محمد كرد على ص ٤١
- دمشق ١٩٣٩

والفرق بين البلوى وابن سعيد أن الأول لم تكن له الأمانة العلمية التي امتاز بها ابن سعيد ، فنقل عن ابن الداية من دون أن يصرح بذلك (٢) .

وكان المؤرخ اليعقوبى معاصرا لبنى طولون ، ولكن تاريخه يقف عند سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) ، ولذا فأننا لانجد فيه الا بعض البيانات عن اربع السنين الأولى من حكم أحمد بن طولون فى مصر ، ونجد مثلها فى نهاية كتابه البلدان . والمعروف أن اليعقوبى كان يحب الأسفار وأنه اتصل بالطاهريين فى خراسان والطولونيين فى مصر . بل الظاهر أنه كان عاملا على الخراج فى برقة حين ثار العباس على أبيه أحمد بن طولون . ويقال أيضا انه اتصل ببني رستم فى بلاد المغرب وانه زار الهند أيضا .

ومهما يكن من شىء فقد كان شيعيا ، وكتب تاريخا وقف فيه عند سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) ، وتوفى اليعقوبى فى مصر سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) بعد أن كتب فيها كتابه «البلدان» . ويقال أن جد اليعقوبى كان من موالى العباسيين واسمه واضح ، وكان واليا على مصر بضعة أشهر سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) ، وانه كان فيها بعد ذلك عاملا على البريد ، فسمح لادريس العلوى — بعد فراره من

(١) هو الكتاب الثانى الذى وصلنا من مؤلفات ابن الداية ، نشره فى القاهرة
لمين عبد العزيز ١٩١٤ م - ١٣٣٢ هـ

(٢) انظر مقدمة الدكتور زكى محمد حسن « م ٤٣ » فى كتاب : ابن سعيد
المغرب فى حلى المغرب ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ م.

موقعة الفخ - بالفرار الى المغرب حيث أنشأ حكومة وأسس دولة الإدارة .

وثمة مؤرخ آخر من مؤرخى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) هو الكندى الذى كتب عن مصر كتاب الولاية وكتاب القضاة ، وهما مصدران رئيسيان فى تاريخ مصر لأن مؤلفهما كان قريب العهد بكثير من الحوادث التى دونها ، فضلا عن أن بين أيدينا طبعة جيدة من هذين الكتاين نشرت بعناية المستشرق الانجليزى جست Guest . ومن مؤرخى المدرسة المصرية أيضا ابن دقماق فى القرن الثامن الهجرى - الرابع عشر الميلادى - وهو من كتاب الخطط ، وله كتاب « الجواهر الثمين فى سيرة الملوك والسلاطين » مخطوط فى الخزانة التيمورية وقد وقف فيه المؤلف عند سنة ٨١٣ هـ (١٤١٠ م) . وله كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لم يصلنا منه الا الجزء الرابع والخامس وقد طبعا فى مجلد واحد سنة ١٨٩٣ م على يد المستشرق الألمانى فولرز Vollers ، وفيهما ذكر كور البلاد المصرية ، أى أقسامها ، ومدنها وغريب ما فيها من التحف والآثار .

وقد أخذ المقرئى (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ = ١٣٦٤ - ١٤٤٢ م) عن ابن دقماق ، ولكن مصادر الأخير كانت أدق وأوثق من مصادر تلميذه ومع ذلك فقد نبغ المقرئى فى كتابة الخطط بنوع خاص . وكان الجزء الأكبر من مؤلفاته عن تاريخ مصر مع ميل الى ناحيتى

الآثار والطوبوغرافيا . ويعتمد المقرئ في أحاديثه عن فجر
الاسلام في مصر على ما كتب ابن عبد الحكم والكندى ثم القضاعى
(من كتاب القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى) ،
كما يظهر أنه انتفع الى حد كبير بما كتبه مؤلف آخر من أصحاب
الخطط عاش في القرن ٨ هـ (١٤ م) وهو الأوحدى .

وأثنى ماوصلنا من مؤلفات المقرئى هو كتاب « المواعظ
والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » . ولكن له كتابا آخر فيه
بيانات وافرة عن تاريخ مصر وأمرائها وهو كتاب « المقفى » الذى
لم يستطع أن يكمل منه الا ستة عشر جزءا والذى توجد بعض
مخطوطات منه فى مكتبتى ليدن وباريس .

أما كتاب التاريخ الاسلامى العام فلا يمكن اعتبارهم مصادر
ذات قيمة كبيرة فى تاريخ الدولة الطولونية . وفى الواقع أن أهمهم
وهو الطبرى (٢٢٥ - ٣١٠ هـ = ٨٣٩ - ٩٢٢ م) كان معاصرا
لبنى طولون ويقال انه زار مصر فى عصر أحمد بن طولون ، أو
قبل قيامه ، ومع ذلك فانتا لا نجد فى تاريخ الطبرى شيئا كبير
القيمة فى تاريخ بنى طولون . وطبيعى أن المؤرخين الذين أخذوا
عن الطبرى ، مثل المسعودى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر
الميلادى) ، ومسكويه فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر
الميلادى) ، وابن الأثير فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر
الميلادى) وغيرهم من المتأخرين ، نقول ان هؤلاء وغيرهم ممن

اعتمدوا على النقل من الطبرى ، لم يأتوا ببيانات وافية وصحيحة
دائما عن تاريخ الطولونيين .

وهناك فئة ثالثة من المؤرخين ، حاول أفرادها ، فيما يختص
بتاريخ بنى طولون ، أن يوفقوا بين مذكره المؤرخون المصريون
ومذكره كتاب التاريخ الاسلامى العام ، وعلى رأس هذه الفئة
النويرى والذهبى وابن خلدون والعينى .

أما النويرى فقد ولد بمصر نحو سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٩ م) ،
وتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) ، وأعظم مؤلفاته شأنا كتاب
« نهاية الأرب فى فنون العرب » وهو فى ثلاثين مجلدا مخطوطا
ومما يلفت النظر أن ماجاء به عن بنى طولون يمتاز بما فيه من
نظام ونقد فى البحث .

أما الذهبى فقد عاش بين عامى ٦٧٣ و ٧٤٨ هـ (١٢٧٤
و ١٣٨٤ م) وولد فى دمشق ورحل منها الى مصر ثم عاد الى دمشق
ثانية ، وأعظم شهرته فى علوم الحديث ، ولكن له مؤلفا مخطوطا
هو : تاريخ الاسلام وقف فيه عند سنة ٧٠٠ هـ وقسمه سبعين
طبقة (كل طبقة عشر سنوات) تشمل كل منها الحديث عن طبقة
من الرجال مرتبين ترتيبا أبجديا . ثم كتب ملحقا له عن المدة
الواقعة بين سنتى ٧٠١ هـ و ٧٤٠ هـ . واختصر الذهبى هذا
المؤلف العظيم الذى توجد مخطوطات متفرقة من أجزائه فى
مكتبات العالم ، فكتب منه أربعة مؤلفات متوسطة الطول . وعلى

كل حال فإن مؤلفه التاريخي ليست له قيمة عظيمة إلا في بعض البيانات عن تراجم مشاهير الرجال . وفائدته في تاريخ بنى طولون تكاد تكون مقصورة على ما يخص الحياة العقلية والأدبية والدينية .

أما ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) فإن تاريخه لا تتساوى أجزاؤه في القيمة والاتفاق ، ويظهر فيما يختص بتاريخ بنى طولون أن ابن خلدون كان عالما بما كتبه مؤرخو المدرسة المصرية علما وافرا ، ولكنه كان يعتمد على ابن الداية ، ولعله كان يفعل ذلك بوساطة مائتله ابن سعيد عن هذا المؤلف .

وكان العيني (٧٦٢ - ٨٥٥ هـ = ١٣٦٠ - ١٤٥١ م) شامى الأصل وقدم الى مصر ، واتصل بالسلطان المملوكى الأشرف برسباى . ومن أعظم مؤلفاته تاريخه الذى لم يزل مخطوطا ، وهو « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ، وفيه بيانات وافرة عن بنى طولون .

وكذلك أبو المحاسن بن تغرى بردى (٨١٣ - ٨٧٤ هـ = ١٤١١ - ١٤٦٩ م) تتلمذ على المقرئى والعينى ، وألف كتاب « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » وهو مرتب على السنين من الفتح الى عصر المؤلف . وفيه من حكم مصر من الولاة والسلاطين ، ومن توفى من كبار الرجال ، فضلا عن حالة النيل من زيادة أو نقصان .

الفصل الثاني
أحمد بن طولون في سامرا

كان طولون مملوكا تركيا من منغوليا . ويقال انه كان ضمن
الجزية التي أرسلها حاكم بخارى الى البلاط العباسي في سنة
من السنين . كما يقال أيضا أنه كان مملوكا لنوح بن أسد والي
بخارى ، وان نوحا عتقه وأهداه الى الخليفة المأمون . ومهما يكن
من الأمر فان طولون وصل الى البلاط في بغداد نحو سنة ٢٠٠هـ
(٨١٦ م) . أما اسمه طولون فمشتق من كلمة تركية بمعنى البدر
الكامل .

ولسنا نملك من البيانات ما نستطيع بوساطته أن نعرف شيئا
عن تاريخ حياة طولون ، ولكن أكبر الظن أنه تقدم في البلاد
بموافقه وصفاته العسكرية الى أن وصل الى رئاسة حرس الخليفة .
والظاهر أنه لم يكن له شأن عظيم في الدسائس والثورات التي
قام بها الجند الترك منذ وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) .

وقد ولد ابنه أحمد في رمضان سنة ٢٢٠ هـ (سبتمبر ٨٣٥ م) .
وأكثر الظن أنه لم يولد في سامرا كما ذكر ابن خلكان اللهم الا
إذا كان تاريخ ولادته الذي ذكرناه ليس صحيحا تماما ، فالأرجح
أنه ولد في بغداد لأن سامرا لم تشيد الا في السنة التالية
٢٢١ هـ (٨٣٦ م) . وهناك بعض أساطير - يغلب أنها نبئت بين
مؤرخي مصر القدماء - تزعم أن أحمد بن طولون لم يكن ابنا

حقيقيا ولكن طولون تبناه « لما رأى فيه من مخايل النجاسة »
ويذكرون في هذه المناسبة قصة تقرأها في النجوم الزاهرة لأبي
المحسن بن تغري بردى (١) ومن عناصر هذه القصة نلاحظ بعض
الشبه بينها وبين قصة سيدنا يوسف وزليخا امرأة العزيز مما
يحملنا على الشك في صحتها ، وليس هذا امرا غير عادي في الذي
يكتبه المؤرخون عن عظماء الرجال وفيما يحيط بنشأتهم ومولدهم
من قصص وأساطير . وثمة رواية أخرى تنسب أحمد بن طولون
الى مضحك تركي كان يعيش في بلاط العباسيين اسمه يلبخ ،
ولكننا نستبعد هذه الرواية أيضا لأننا لانعرف أن أعداء ابن
طولون - ولا سيما الموفق - أشاروا الى هذه القصة . وقد
حفظ لنا المؤرخ الكندي في كتابه « ولاة مصر » القصائد التي
نظمها الشاعر المصري محمد بن داوود في هجاء أحمد بن طولون
وليس في شعره هذا إشارة الى القصة المذكورة .

على أن البحتري ، الذي نعرف أنه نظم شعرا في مدح خمارويه
ابن أحمد بن طولون ، قد هجا ابن طولون بأشعار فيها إشارة
الى صلة أحمد بن طولون يلبخ أو تنبى طولون له ، ولكننا
لا نستطيع أن نعتمد بسهولة على أقوال شاعر في هذا الميدان
ولا سيما البحتري ، وحسبنا أن نقرأ شعره الهجائي لتبين أن اختراع
المثالب لم يكن لديه أمرا صعبا .

(١) انظر أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » طبعة دار الكتب المصرية ج ٢

وعلى كل حال فإن أحمد بن طولون أصبح يتيما فى شبابه فقد مات أبوه طولون سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) . وقد ذكر العيني فى تاريخه : « عقد الجمان فى تاريخ الزمان » أن زوج طولون وأم ولده أحمد تزوجت بعد وفاة زوجها هذا ، « بغا الأصغر » أحد زعماء الجند الترك . والمعروف أيضا أنها تزوجت لثالث مرة من « باكباك » الذى خلف بغا فى وظيفة - الأمين - بالسلطان العباسى .

والظاهر أن أحمد بن طولون وأخاه موسى لقيا الشئ الكثير من عناية الجند الترك بعد وفاة أبيهما . وأكبر الظن أنهما تلقيا التعليم العسكرى الذى اعتاد تلقيه ضباط الجند الترك فى ذلك الحين والذى كان يؤهلهما للعمل فى جند الخليفة .

وفضلا عن ذلك كله فقد درس أحمد الفقه والدين مما كان لا يعنى به أمثاله من الجند الترك . وكان بمعزل عن دسائسهم وما كانوا يحدثونه من شغب ، فأنصرف الى دراسة الحديث والفقه على مذهب أبى حنيفة ، وانتظم فى الوقت نفسه فى الجندية . ثم تزوج من « خاتون ابنة عمه يارجوخ » ولسنا نعرف هل كان يارجوخ شقيقا لطولون . ونحن نرجح أن كلمة « عم » ليست بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة حين نتحدث عن الجند الترك وما اليهم من الممالك .

وولد لابن طولون من ابنة عمه هذه ابنه البكر « العباس » ،

ومع ذلك فإن هذه الحياة الجديدة ومسئولية الأسرة لم تخفها من
رغبته في تحصيل العلم ، فطلب من الوزير عبيد الله بن يحيى بن
خاقان أن يعين في طرسوس ليستطيع أن يتصل بمن فيها من الأئمة
والفقهاء بعيدا عن شغب الجند ودسائس البلاط . وقد سافر
إليها مع صديقه أحمد بن محمد بن خاقان الذي يظهر أنه كان
من أقرباء الوزير المذكور .

ولسنا نعرف شيئا يذكر عن حياته الدراسية في تلك المدينة
التي ذاع صيت علمائها في الحديث والتفسير والفقه ولكن الذي
يهمنا أنه استطاع بذهابه إليها أن يبعد عن دسائس العاصمة - وهي
حينذاك سامرا - وألا يشترك في أحزاب الجند الترك وأن تبقى
علاقته طيبة مع جميع رؤسائهم . على أن الراجح أن حياة ابن
طولون في طرسوس لم تكن علمية بحتة ، ولم تكن وقفا على
الدرس والتحصيل ، فإن ابن الداية يذكر أن صاحبنا عين رئيسا
للغزاة فيها . والمعروف أن طرسوس كانت إحدى النقاط الحربية
الهامة الواقعة في منطقة الحدود بين أملاك المسلمين وأملاك الروم
في آسيا الصغرى والتي كانت تعرف باسم منطقة الثغور . ويظهر
من عبارة في سيرة ابن طولون لابن الداية أن ابن طولون لم يأخذ
معه أفراد أسرته إلى طرسوس . ونحن لا نعرف تماما المدة التي
قضاها في طرسوس ، ولكن يتضح مما رواه البلوى في سيرة
أحمد بن طولون أنه لم يكن في سامرا أثناء المؤامرة التي انتهت
بمقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ ، وأنه خرج من طرسوس بعد

تولية الخليفة المستعين سنة ٢٤٨ هـ (٨٦١ م) • أما سر عودة
ابن طولون فغير معروف •

قيل ان أمه وزوجته استدعتاه وان أمه كاتبته بما أقلقه على
صحتها ، وقيل ان أمه قلقت عليه وهو في طرسوس وظنت أنها
فقدته في غزواته ضد الروم ، ولهذا عزم على الرحيل الى سامراء
ونحن نرجح أن مقتل الخليفة المتوكل وبيعة المستعين دعاه الى أن
يكون على مقربة من مسرح الأحداث ليفيد منها •

ويروى المؤرخون حادثا وقع له في رحلته عند العودة الى
سامراء وأبدى فيه من الشهامة وعلو الهمة ما قرب به الى الخليفة
المستعين مثلما كان مقربا الى الخليفة المتوكل • ففي طريق عودته
من طرسوس انضم ركبته الى قافلة قيل انها كانت مؤلفة من
خمسائة رجل وكانت هذه القافلة راجعة من بلاد الروم تحمل
متاعا ثميناً للخليفة العباسي المستعين . وأغار الأعراب من قطاع
الطرق على هذه القافلة على مقربة من مدينة الرها ، ورأى رجال
القافلة أن من الأفضل الاعتصام بقلعة الرها لتنجو من مصيرها
المحتوم ، لكن الضابط الشاب أحمد بن طولون لم يقنع بالدفاع
ولكنه حارب المعتدين ، وأنقذ القافلة وحفظ متاع الخليفة واسترد
ما سلبه قطاع الطرق . ولما وصلت القافلة الى سامراء وأخبر
رئيسها الخليفة المستعين بما حدث بعث الخليفة الى أحمد بن
طولون بألف دينار سرا ووثق به وقربه اليه ، وكان ابن طولون

إذا دخل على المستعين مع الأتراك أوماً إليه الخليفة بالسلام .
وتوالت على أحمد بن طولون صلات الخليفة وهباته وكان من
بينها جارية اسمها مياس ولدت له أبا الجيش خمارويه . ولسنا
نعرف نصيب قصة القافلة من الصحة (١) .

ولكننا لا نشك في أن ابن طولون كانت له علاقة طيبة بالمستعين
حتى أن هذا الخليفة عندما اعتزل العرش وطلب إليه أن يختار
رفيقاً يصحبه إلى واسط ثم إلى مكة وقع اختياره على أحمد بن
طولون فقبل الجند الترك ذلك . ومضى ابن طولون بالمستعين
إلى واسط وأحسن معاملته ، ولكن غلمان المتوكل خافوا من
المستعين ، فطلبوا من ابن طولون أن يقتله ، فامتنع ، وكتب إلى
الأتراك أنه لا يقتل خليفة له في رقبته بيعة . ويقال أن الجند
انفذوا سعيداً الحاجب فتسلم المستعين وقتله فدفنه ابن طولون
وعاد إلى سامرا . وروى أن أحمد بن طولون كان يقول بعد
ولايته مصر : « كانت غاية ما وعدنا به على قتل المستعين ولاية
واسط ، فتركت ذلك لله عز وجل فعوض الله ولاية مصر والشامات
وسعة الأحوال معها » .

ويزعم آخرون أن ابن طولون لم يكن غريباً عن قتل المستعين
ولكننا لا نعرف أن أحداً ذكر هذه الرواية دون الأولى ، وهي

(١) انظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥ ، ولاحظ ما يدل عليه
نستر الخليفة في مطلقه على أحمد بن طولون من ضعف نفوذه أمام الجند .

تخبر امتناعه . وإذا حكمنا بسيرة أحمد بن طولون رجحنا أنه لم يمتنع ، وأنه لا يستطيع أن يجلب على نفسه غضب الجند الترك وهم أصحاب النفوذ في الخلافة العباسية آنئذ ، وإذا كان ابن طولون لم يشترك في قتل المستعين فإن ذلك لأن « قبيحة » أم الخليفة المعتز وأنصارها من الجند وقع اختيارهم على غيره لقضاء هذه المهمة الدقيقة .

ولا شك أن أحمد بن طولون كان يعلم بالنية المبيتة لقتل المستعين يوم ساومته أم الخليفة المعتز ، وكان بوسعه أن ينبه المستعين الى ما يدبره الأتراك ، ولكنه خشى العاقبة وخشى نقمة أم الخليفة وشيعتها من الأتراك ورضى بتسليم الضحية لمن يذبحها وهو يعرف هذا المصير . ولعل مصدر رواية امتناعه عن قتل الخليفة هو ابن الداية كاتب سيرته ولعله أراد بذلك اعلاء شأنه.

والحق اننا لا نستطيع أن نطلب من ابن طولون أن يمضى الى أبعد مما مضى اليه فيحول بين الخليفة وبين مقتله ، لكن عدم اشتراكه في مقتل المستعين كان له أثره العظيم في الرأي العام حينئذ الذي أكبر فيه دينه وفضائله^(١) .

ومهما يكن من الأمر فإن ابن طولون حين عاد الى سامرا لم يمكث فيها طويلا فقد استولى على السلطان والنفوذ ، الجند

الترك الذين نصبوا المعتز على عرش الخلافة وكان أعظمهم شأنًا
باكباك الذى كان قد تزوج من والدة احمد بن طولون والذى
أقطع مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) • والمعروف أن هؤلاء القواد
الترك الذين كانت تقطع لهم الأقاليم كانوا يحرصون على البقاء
في العاصمة ليراقبوا تطور الحالة وليأمنوا دسائس خصومهم ،
وليبقوا بين سائر الجند الترك ممن كانوا عصبيتهم ومصدر
سلطانهم •

ووقع اختيار باكباك على احمد بن طولون ليكون نائبا عنه
في مصر • فقدم احمد بن طولون الى وادى النيل سنة ٢٥٤ هـ
(٨٦٨ م) كنائب بسيط عن واليها • ومن المحتمل جدا أنه منذ
تلك الساعة كان يفكر في الاستقلال بمصر ولا يتوقع في هذا
السبيل مصاعب جمة نظرا لما كان يعرفه من ضعف الخلافة
العباسية واحتضارها ، فضلا عن الفوضى بين الجند الترك مما
فرق كلمتهم الى حد كبير •

افضل الثالث
العالم الاجلای و خیر فی القرن الثالث هجری
الشیخ الیادی

أصبحت مصر بعد قدوم عمرو بن العاص اليها فاتحة في بداية القرن الأول الهجرى والسابع الميلادى (١٨ هـ = ٦٣٩ م) جزءا من عالم عربى اسلامى أخذ فى النمو والانتساع حتى بلغ مداه أيام الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ = ٧٠٥ - ٧١٥ م) وأصبح العالم الاسلامى يمتد من الهند وحدود الصين وايران الشرقية وآسيا الوسطى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن البحر الأسود والبحر المتوسط وجبال البرانس شمالا الى بحر العرب وصحارى السودان جنوبا . ولما قامت الدولة العباسية ونقلت العاصمة من دمشق الى بغداد كان هذا ايذانا ببدء عهد الانقسام والتفرق بين أنحاء الدولة الاسلامية . اذ كان قيام العباسيين بمساندة الفرس والخراسانيين ثورة من الفرس أو الايرانيين ضد أهل الشام الذين قامت على أكتافهم الدولة الأموية وارتفع شأن الفرس فى الخلافة الجديدة وأمسكوا بأزمة الأمور .

وكانت الخلافة قبل مجيء العباسيين تستمد قوتها السياسية من تماسك أفراد البيت الخليفى فضلا عن اعتمادها على العرب الذين كانوا يشدون أزرها ويؤمنون بأن قوة العرب فى بقاء الخلافة قوية .

أما العباسيون فقد بدؤا يفقدون مصادر هذه القوة منذ

مجيئهم الى الحكم فوضح الانقسام فى صفوف البيت العباسى منذ البداية ، ثم قام النزاع الدامى بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون وكان لهذا أثره فى تمزيق وحدة العالم الاسلامى . وفى الوقت الذى كان البيت العباسى يفقد فيه وحدته أخذ يفقد العنصر الثانى الذى تركز عليه قوته ، فكانت العصبية العربية تضعف وتتداعى ، بل ان العباسيين عملوا على اضعاف هذه العصبية ، ولم يصبح العرب هو العنصر الحاكم أو المسيطر على تلك الدولة الشاسعة وانما أصبح أحد العناصر فيها . وهكذا أودى العباسيون بذلك العنصر العربى الذى كان يستطيع أن يقف وراء الخلافة العباسية وأن يسندوها ويحميها فى أوقات الأزمات .

وفى الوقت نفسه لم يثق الخلفاء العباسيون بالفرس الذين كان لهم الفضل الأول فى قيام دولتهم فنكبوا الزعماء الفرس الذين ساندوهم والأسرات الفارسية التى عضدتهم . وهكذا نرى العباسيين يفقدون ثقة العرب ثم ثقة الفرس .

وراح العباسيون يلتمسون قوة جديدة ليحافظوا على تخلفاتهم ، فاتجهوا الى الترك . وعرف العرب الترك بعد فتح بلاد ماوراء النهر (١) فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، ورأوا فيهم

(١) ما وراء النهر : أى ما وراء نهر جيحون فى آسيا الوسطى : وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم التركستان الروسية

قوما يحبون القتال والحرب ، وليست لهم عصبية العرب وليس لهم دولة أو ملك يريدون احياه مثل الفرس .

وأخذ الاتراك يتسللون الى الحياة الاسلامية منذ عهد الخليفة هرون الرشيد ، أما الخليفة المأمون فقد رأى العرب يقفون خلف الأمين ، ولم يطمئن هو اطمئنانا تاما الى الفرس الذين كانوا يساندونه ، فأحب أن يوجد نوعا من التوازن بين هؤلاء وهؤلاء فبدأ يستخدم المحاربين الترك على نطاق ضيق . ثم أقبل أخوه وخليفته المعتصم - وهو ابن أمة تركية - فى اسراف على استخدام الأتراك (٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ - ٨٤٢ م) واستكشر منهم فى الجيش ، وضاق بهم أهل بغداد فأنشأ لهم فى سنة ٢٢١ هـ حاضرة جديدة هى سر من رأى أو سامراء بل ان المعتصم أسقط من فى ديوان الجيش من العرب وقطع أعطياتهم . وجاوز الأتراك النطاق العسكرى وبدأوا يتسربون الى الجهاز الادارى فأسند المعتصم اليهم كثيرا من المناصب العليا فى الدولة . ووجد الاتراك الطريق خاليا لهم بعد المعتصم فاصبحوا فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى مسيطرين على شئون الدولة الحربية والمدنية ، وخضع سلاسل العباسيين لهؤلاء الاتراك خضوعا تاما .

وجاء بعد المعتصم أخوه الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧ م) وعظم نفوذ الجند الترك ولاسيما ايتاخ ووصيف اللذين يرجع اليهما انتخاب المتوكل خليفة للواثق عندما توفى هذا بعد

حكم دام خمس سنوات . ولكن المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ - ٨٦١ م) لم يقبل أن يكون العوبة في يد الجند الترك فسجن ايتاخ مع أنه كان من اكبر زعماء الجند الترك فضلا عن أنه كان المشرف على بيت مال الدولة . واستدعى المتوكل محمدا ابن عبد الله الطاهري وعينه حاكما على العراق ليتخلص بذلك من نفوذ الترك ، ولكن كثرة الدسائس والمؤامرات حملت الخليفة على التفكير في ترك سامرا ونقل العاصمة الى دمشق . ولما لم يوافقوه جو دمشق فقد عسكر بجنده على مقربة منها . وثار الجند بحجة أن أعطياتهم المتأخرة لم تصرف اليهم . فلم ير المتوكل بدا من دفعها والرجوع الى سامرا . وقد كتب المسعودي في كتابه مروج الذهب حديثا يستدل منه على مبلغ نفور هؤلاء الجند من الإقامة في الشام .

والمعروف أن المتوكل ارتكب غلطة كبيرة كانت قاضية على حياته فكان قد أعلن ابنه الأكبر المنتصر وليا لعرشه ولكنه رجع عن هذا الرأي ونحى المنتصر عن ولاية العهد وجعل لها ابنا آخر أصغر سنا وهو المعتز . وأدى ذلك الى تأمر المنتصر مع الجند الترك على قتل أبيه . على أن ابن طباطبا (أو ابن الطقطقى) صاحب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية ، ذكر في هذا الصدد أن المتوكل كان يضطهد العلويين وأن ابنه المنتصر تأمر على قتله لهذا السبب . ولكننا نرى أن هذه رواية ضعيفة ويجب ألا ننسى في هذه المناسبة ان ابن الطقطقى كان شيعيا .

وعلى كل حال فإن الجند الترك بدأوا بتدبير مكيدة لواحد من رؤسائهم كان شديد التعلق بذات الخليفة والاخلاص له . وكان عنده اتباع يستطيعون الدفاع عن الخليفة . وأفلح سائر الجند فى اقناع المتوكل بخيانة هذا التابع الأمين فأبعده وخلا لهم الجو وفاجأ الجند المتوكل فى ليلة كان يشرب فيها مع نديمه ووزيره الفتح بن خاقان وقتلوهما معا سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ونشروا بين الناس أنهم قتلوا الفتح بن خاقان لأنه قتل الخليفة . ولكن المنتصر لم ينعم بالعرش أكثر من بضعة أشهر حرص فيها على تأمين سلامة الذين تأمروا معه على قتل والده ، وكانوا يخشون ماقد يقع لهم من انتقام أبناء المتوكل الآخرين اذا تولى أحدهم العرش يوما ما . ولذا فقد جرد المنتصر اخوته من كل سلطان أو اقطاع كان فى يدهم وحملهم على امضاء تنازل عن العرش .

ولما توفى المنتصر كان زعماء الجند الترك لا يزالون يخشون انتقام أبناء المتوكل الذين اضطهدهم المنتصر حرصا على سلامة شركائه فى الجريمة ، ولذا بايع الترك بالخلافة المستعين حفيد المعتصم .

ومن ناحية أخرى قام الخلاف بين الجند الترك أنفسهم وكان النزاع بين أحزابهم المختلفة مصدرا كبيرا للشغب . وقد حدث أن عمل زعيمان من زعمائهم - هما بغا ووصيف - على قتل زعيم ثالث . فأشعل ذلك الزعيم نار الثورة ضد هذين الزعيمين

لاستبدادهما وما جمعا في أيديهما من السلطان والدكتاتورية .
وانتهت الثورة بفرار بعا ووصيف الى بغداد مصطحبين الخليفة ،
ولكنهما لم يأخذا معهما المعتز والمؤيد ابني المتوكل بل القيا بهما
في السجن بسامرا فأخرجهما الجند وبايعا المعتز بالخلافة . ونشب
القتال بين أنصار الخليفتين : المستعين والمعتز . وحاصر المستعين
في بغداد وسلمت هذه المدينة سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) بعد أن حصل
المستعين على الأمان لنفسه ولذويه متعهدا بأن يسكن في مكان ،
ولكنه اضطر الى البقاء فترة قصيرة في واسط . وفي هذه الظروف
ظهر على مسرح السياسة كما رأينا أحمد بن طولون اذ وقع عليه
الاختيار لمرافقة المستعين .

وجدير بنا أن نلاحظ أن تدهور الخلافة العباسية من الناحية
السياسية لم يكن ناشئا عن ضعف الخلفاء بقدر ما كان ناشئا عن
ضعف النظام العباسي نفسه ، فقد كان هناك خلفاء أقوياء في هذا
العصر ، لو كان زمانهم قد تقدم بهم لما كانوا أقل من المنصور أو
الرشيد أو المأمون اذ واجهوا خطر الأتراك غير معتمدين على
عصبية قوية تسندهم ولهذا لم يستطيعوا دفع سلطان الأتراك الذي
أكان قد طغى على الخلافة العباسية في جميع النواحي الحربية
والسياسية .

وفي هذا العصر وضحت الحركات الاستقلالية في مختلف
البلدان الاسلامية ، بل ان جذور هذه الحركات بدأت قبل القرن

الثالث الهجرى وفى فجر الدولة العباسية وفى عنفوان قوتها .
وكان أول تفكك فى الدولة العباسية ذىلا لسقوط بنى أمية ،فان
عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك أفلح فى النجاة من
التعذيب والاضطهاد اللذين كانا نصيب أفراد الأسرة الأموية على
يد العباسيين حين تولوا الحكم . ويمم عبد الرحمن شطر مصر ثم
افريقية ثم المغرب ، ولكن أنظاره اتجهت الى الأندلس واتخذها
مسرحا لنشاطه السياسى . وكان النزاع قائما فى شبه جزيرة ايبيريا
بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أى بين القيسيين واليمنيين ،
ونجح عبد الرحمن فى استغلال هذا الموقف بالخدعة والحرب
ونصب أميرا سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦م) فأسس بذلك امارة قرطبة ،
وهكذا انفصلت اسبانيا عن الخلافة العباسية . ولم تستطع
الخلافة العباسية أن تتدخل تدخلا ناجحا ، وظلت أسرة عبد الرحمن
— الذى لقب عبد الرحمن الداخل — تحكم البلاد فى قرطبة
متخذين لقب الامارة الى ان جاء عبد الرحمن الناصر فاتخذ لقب
الخلافة سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩م) . ولم تلبث افريقية أن نسجت على
منوال الأندلس ، وكان عبد الرحمن بن حبيب والى افريقية قد
ثار على الأمويين سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠م) وطرد أتباعهم من القيروان
ولما انتقل الحكم الى بنى العباس ثبتوا عبد الرحمن فى ولاية
افريقية ، ومع ذلك فانه أبى الاعتراف بسلطان الخليفة ، ولكنه
فشل وفشلت حركته الاستقلالية . وكان البربر فى المغرب يقومون
بالثورة بعد الأخرى ، وتأسست أسرات خارجية كبنى مدرار فى

سجلماسة ، وبنى رستم فى جنوب تونس والجزائر ، كما قامت دولة الادارسة العلوية فى المغرب الأقصى . ولم يبق للعباسيين فى نهاية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) من الدولة الاسلامية فى المغرب الا افريقية - أو تونس الحالية - ولم يستطيعوا الاحتفاظ بها اسما مدة قرن من الزمان الا بوساطة أسرة الأغالبة التى ظلت تحكمها ، مع سيادة اسمية للخليفة العباسى من سنة ١٨٤ الى سنة ٢٩٦ هـ (٨٠٠ - ٩٠٩ م)

وكان القتال بين الأمين والمأمون عاملا جديدا فى تقويض بناء الدولة الاسلامية ، فاستقل والى اليمن فى عصر المأمون وأسس أسرة بنى زياد التى ظلت تحكم البلاد حتى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وكذلك أقطع المأمون قائله الفارسى طاهر بن الحسين ولاية خراسان فلم يلبث أن استقل بها وقامت بها الأسرة الطاهرية . وعين أبو دلف واليا على همذان فى بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فاستقل بها وخلفه أفراد أسرته بعد أن استولوا على أصفهان ونهاوند .

وأخطأ العباسيون كما أخطأ الأمويون من قبل فأمعنوا فى اضطهاد العلويين فانتشرت الدعوة لهم فى الأقطار كافة ، كما ظهرت الدعوة القرمطية فى البحرين والدعوة الاسماعيلية فى سلمية بالشام وفى المغرب ، كما أن بعض العلويين نجحوا سنة ٢٥٠ هـ فى الاستيلاء على الحكم فى طبرستان وبلاد الديلم وجيسلان جنوبى بحر قزوين ، وظلت هذه الأسرة العلوية تسود تلك الأقاليم

الى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨م) حين هزم السامانيون آخر ملوكهم
الحسن بن قاسم . على أن الشيعة أحرزوا النجاح الأعظم فى بلاد
المغرب فى القرن الثالث الهجرى حين خرج الدعاة الاسماعيليون
الى أرض كتامة يشرون بمذهبهم ويدعون ل خليفة من ولد على
واتهى الأمر بقيام الدولة الفاطمية بالمغرب على يد عبيد الله
المهدي .

على أن الفاطميين بعد أن تم لهم الأمر لم يكتفوا بالسلطان
الدنيوى بل اتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان فى
سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩م) وتبعهم عبد الرحمن الناصر فى الأندلس
فتسمى بأمير المؤمنين سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩م) كما ذكرنا .

والحق أن حركات الاستقلال وضحت واتسع انتشارها منذ
القرن الثالث الهجرى كما مر بنا وتتابع تلك الحركات ، فقامت
الدولة الصفارية فى فارس ، وهو الاقليم الايرانى الذى يقع
شرقى الخليج الفارسى (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) ودولة بنى ساج فى
آذربيجان (٢٦٦ - ٣١٨ هـ) والدولة السامانية فى اقليم ماوراء
النهر (٢٧١ - ٣٨٩ هـ) .

ولم تكن هذه الحركات الاستقلالية مجرد ظهور مغامرين
يستقلون بهذا البلد أو ذاك الاقليم وانما كانت هذه الحركات تتم
عما هو أعمق من ذلك . ويرى البعض أن هذه الحركات انما هى
تعبير عن انحلال وتفكك فى الدولة الاسلامية ، وانها كانت بدايا

للكارثة التي أودت بوحدة العرب والمسلمين . ولكننا نرى أن هذه الحركات لم تكن تفككا لدولة العرب والمسلمين الا اذا كانت المسألة هي مجرد سيطرة خلافة بغداد سيطرة تامة على جميع العالم الاسلامي من جميع النواحي السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية . وقد رأينا ان المحاولات الاستقلالية اتضحت في فجر الدولة العباسية وفي عنفوانها ، ومع ذلك فان العالم الاسلامي كانت تجمعه وحدة الخضوع الاسمي لخليفة المسلمين ، أو وحدة الولاء العميق للإسلام والعروبة ، والرغبة الأكيدة في الجهاد لنصرة العالم الاسلامي والوقوف في وجه الأخطار التي تتهدده . والحق أن هذه الحركات كانت تعبيرا عن القومية وعن الاقليمية ، فقد عظمت الدولة الاسلامية واتسعت أرجاؤها وضعف تماسك اجزائها ، وكيف يمكن توحيد عالم بأسره ممتد من الصين الى المحيط الأطلسي تحت سلطة مركزها في بغداد ؟ ونحن نعلم أن العرب بعد الرسول عليه الصلاة والسلام زمن الخلفاء الراشدين وأيام الخلفاء الأمويين ، قهروا قوميات عريقة في التاريخ والحضارة ، قهروا الفرس والروم والمصريين والبربر والقوط ، كما ادخلوا في طاعتهم أقاليم جغرافية متباينة جنسا ولغة وطبيعة ، وسيطرت المدينة ودمشق وبغداد على هذا العالم الشاسع ، ولكن لم يكن من المعقول أن تستكين هذه القوميات وهذه الاقاليم تحت لواء السلطة المركزية أكثر من قرن أو قرنين من الزمان فكان لابد أن تجد لها متنفسا في هذه الحركات . وكانت هذه الحركات

الاستقلالية طليعة التنافس بين بلاد الاسلام فى الانتاج الثقافى وفى كل أسباب الحضارة . والحق ان هذه التطورات كانت انتصارا حقيقيا للدعوة الاسلامية ولروح الاسلام فلم يفرض الاسلام امتيازاً لقبائل العرب على حساب غيرهم من المسلمين وغير المسلمين ، ولم يفترض الاسلام أن يستبد العرب بالسلطان أبداً الدهر وأن تسيطر قريش وخلفاؤها من العرب على أزمة الأمور، وإذا كانت القوميات والاقاليم الاسلامية بدأت تتطلع الى التحرر فذلك من نعمة الاسلام . وقد وافق ظهور هذه الحركات وانتشارها ضعف الخلافة العباسية كما مر بنا .

أما مصر فكان ولايتها فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين من العرب . وأعطى الخلفاء الأمويون لعمالهم على الولايات قسماً كبيراً من الحرية والاستقلال فظهر فى مصر وفى غيرها من البلاد الاسلامية ولادة لهم سلطان الملوك مثل عمرو بن العاص وعبد العزيز ابن مروان فى مصر ، ومثل زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى وخالد بن عبد الله القسرى فى المشرق ، ومثل موسى بن نصير فى المغرب .

وفى العصر العباسى يتغير الحال فالدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ولذا نجد بين ولادة مصر من هم من عناصر فارسية وكان آخر وال عربى على مصر هو عتبة بن اسحق (٢٣٨ - ٢٤٢ هـ) . على أن الخلفاء العباسيين بدأوا يتخذون فرقاً من الجند

الاتراك ثم استكثر الخليفة المعتصم منهم وتغلغل نفوذهم فى الدولة كما مر بنا وتأثرت مصر بما كان يدور فى الخلافة فوليتها ولاية من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التبركى (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ) (١)

وتميز حكم العباسيين فى مصر بكثرة تغيير الولاية ، وقد يكون هذا الأمر راجعا الى بعد مقر الخلافة العباسية ، أعنى بغداد وسامرا ، عن مصر فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاية مصر فى الحكم طويلا لئلا يطمعوا فى الاستقلال ببلاد ، وقد يكون ذلك راجعا أيضا الى ضعف نظام الخلافة العباسية والى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيقي بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية وخاصة منذ عهد المعتصم ، ولذا عنى هؤلاء الخلفاء بتولية ولاية كثيرين فى مدد متقاربة قصيرة كيلا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمكين لنفسه فيها ، كما استخدموا البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاية . على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاية قد تحقق نتيجة لسياسة الاقطاع التى اتبعتها ، فمنذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) اتبع الخلفاء العباسيون سياسة اقطاع بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات على أن يؤدوا مالا معيناً للخلافة .

(١) الكندى : كتاب الولاية وكتاب القضاة ص ٢٠٢ « طبعة جست » وابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٨ .

ولا ريب في أن النظام الاقطاعي في الشرق كان يختلف
اختلافا كبيرا عنه في الغرب ، ولعل أكبر فرق بين النظامين الشرقي
والغربي أن الاقطاع الأوربي كان يتوارث في أسرة صاحب
القطاع وفق تقاليد وراثية معروفة ، أما في الشرق فلم يكن من
حق صاحب القطاع أن يورث اقطاعه ، كذلك كان السكان في
الغرب يقطعون مع الأرض بعكس النظام في الشرق . وقد أقطع
الخليفة الرشيد افريقية (تونس الحالية) لابراهيم بن الأغلب في
سنة ١٨٤ هـ .

ويذكر المؤرخ الطبري أنه في سنة ٢١٣ هـ ولي المأمون أخاه
المعتصم الشام ومصر ، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة (١)
والثغور والعواصم (٢) . وقد ثبت المعتصم من الحكام من ثبت
وعزل من عزل في البلاد الخاضعة لحكمه . وتدل أوراق البردي
على أنه في سنة ٢١٧ هـ كانت الأوامر والرسائل التي تصدر الى
الولاية باسم الخليفة المأمون يذكر فيها اسم المعتصم بجانبه .

(١) الجزيرة : تعني شمالي العراق وشمالي الشام

(٢) الثغور والعواصم : هما الخطان الدفاعيان في شمالي الشام والعراق
بين بلاد الاسلام وبلاد الروم . والثغور هي الخط الامامي الذي يلي ارض العدو
مباشرة ، اما العواصم فهي خط الدفاع الداخلي الذي يلي خط الثغور في ارض
الاسلام

وقد علمنا من نص « بروتوكول » (١) تاريخه ٢١٧ - ٢١٨ هـ أن الأمير المعتصم كتب اسمه بعد الخليفة المأمون مع كيدر الذى كان واليا على مصر فى سنة ٢١٧ - ٢١٩ هـ فى حين أن كيدر هذا كان الوالى الذى أقامه الخليفة مباشرة (٢) .

ونلاحظ أن مصر انتهزت فرصة النزاع بين الخليفة الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذى ساد فى أوائل حكم المأمون ، وكادت تخرج من حكم الخليفة وتستقل بأمورها . واستطاع السرى بن الحكم الخراسانى الأصل ، ان يكون لنفسه ولأسرته من بعده ملكا شبه مستقل دام نحو عشر سنوات ، ولم تسيطر هذه الأسرة على مصر طوال هذه المدة وانما سيطرت على العاصمة دائما وعلى الوجه القبلى فى الغالب . واستطاع عبد العزيز بن الوزير الجروى فى الوقت نفسه أن يستولى على شرقى الدلتا وحاول هو وأسرته من بعده ان يبد نفوذهم على الدلتا كلها وعلى الصعيد . وغلبت قبيلتا لخم وجذام على غربى الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية

(١) كان درج البردى يتألف من مشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة الاولى من هذه الاوراق باليونانية Protocol وكانت تشتمل على الكتابة الرسمية التى تسمى الطراز « جرومان : اوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ج ١ ص ٤ - القاهرة ١٩٣٤ م »

(٢) انظر : جرومان : المحاضرة الثالثة من الاوراق البردية ص ١١ - دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٠ م .

وأعمالها ومريوط والبحيرة . وفى تلك الأثناء أيضا رست بالقرب من الاسكندرية مراكب فريق من الأندلسيين خرجوا من وطنهم مطرودين فى عهد أميرهم الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة الربض بقرطبة فى رمضان سنة ١٩٨ هـ ، وكان عددهم حوالى ١٥٠٠٠ شخص اذا استثنينا النساء والأطفال . واستطاع الأندلسيون أن يستغلوا ظروف مصر آنئذ والنزاع الذى كان سائدا بين القوى الخارجة عن الخلافة ، وبينها وبين الولاة الذين كانت الخلافة تحاول تعيينهم فى مصر ، فاستقروا فى الاسكندرية ومالبثوا أن ملكوها وأصبحوا أصحاب السلطة الفعلية فيها منذ سنة ٣٠٠ هـ ، وأصبحت الاسكندرية شبه جمهورية مستقلة للأندلسيين مدة عشر سنوات . وتحولت مصر الى قطائع مقسمة بين أفراد أو جماعات مختلفة ، كل منها مستقلة عن الأخرى وهى كلها مستقلة عن الخلافة . واستطاع الخليفة المأمون بفضل مجهودات قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين أن يستعيد مصر ثانية فى سنة ٢١١ - ٢١٢ هـ بعد أن كادت تخرج من حكم الخلافة العباسية وتستقل بأمورها . وكانت أسرة السرى بن الحكم أول أسرة شبه مستقلة فى مصر الاسلامية . وكانت هذه الأسرة مقدمة لأسرة أحمد بن طولون التى استقلت بمصر .

ولما ولى المعتصم الخلافة (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) حذا حذو الخليفة الرشيد والمأمون فى سياسة الاقطاع ، وكان الأتراك قد بدأوا يتمكنون من الخلافة العباسية فأقطع المعتصم اشناس التركى

ولاية مصر . وقد علمنا من أوراق البردى العربية أن القائد أبا جعفر اشناس تولى الامارة على مصر فى سنة ٢١٩ هـ من قبل المعتصم ثم أذن له بأن يولى الحكام بنفسه ، وكان يذكر اسمه فى خطبة الجمعة مع الخليفة . ومنذ سنة ٢٢٧ هـ كان تحت حكم اشناس دولة تمتد من بغداد الى آخر حدود المغرب . وكذلك نعرف من أوراق البردى ان السكة ضربت باسمه كما نقش اسمه على الموازين والمكايل . وظل اشناس صاحب اقطاع مصر ويعين ولايتها من قبله الى أن توفى سنة ٢٣٠ هـ .

ثم أعطى الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) مصر لايتاخ التركى اقطاعا له . ولم تقتصر سلطة ايتاخ على مصر ، بل نرى الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) يفوض اليه فى سنة ٢٣٤ هـ أمر الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة مضافا الى مصر (١) . ولكن لم يلبث المتوكل أن أمر بالقبض على ايتاخ فى المحرم سنة ٢٣٥ هـ وأقطع مصر ابنه وولى عهده المنتصر الذى ظل يولى ولاية مصر الى أن توفى المتوكل وولى المنتصر الخلافة (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) وفى مجموعة الأوراق البردية المحفوظة فى فينا والتي كونها الارشيدوق رينر ، وثيقة بردية من سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦م) صادرة من المنتصر الى نائب الوالى العباس بن عبد الله بولايته على مصر وبرقة والاسكندرية .

(١) ان المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧٥

والراجع أنه يزيد بن عبد الله الذي كان أول وال حكمها من الترك . وظل يزيد في هذه الوظيفة حتى ولى الخلافة المعتز سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦م) . وقد ذكر المستشرق الانجليزى ستانلى لين بول ، خطأ ، فى البيان الذى كتبه عن ولاية مصر أن مصر أقطعت الى الفتح بن خاقان فى عصر المنتصر . ولكن الحقيقة أن الفتح بن خاقان قتل مع المتوكل أثناء المؤامرة التى دبرها الجند ونجح بواسطتها المنتصر فى الاستيلاء على العرش . ويذهب بعض المؤرخين الى أن المتوكل قتل سحبا اقطاع مصر من ابنه المنتصر وأقطعها للوزير الفتح بن خاقان .

والمعروف أن الخليفة المعتز عزل والى مصر التركى يزيد بن عبد الله فى سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧م) وولى بدله مزاحم بن خاقان . وتوفى مزاحم فى العام التالى فعين الخليفة بدلا عنه ابنه أحمد ابن مزاحم . ثم عزل وخلفه فى العام نفسه تركى آخر هو ازجور طرخان ، ولكنه لم يحتفظ بوظيفته هذه الا بضعة أشهر نجح أثناءها فى اخماد ثورة علوية قام بها شخص اسمه بغا . وفى سنة ٢٥٤ هـ اقطعت مصر الى باكباك التركى فبعث نائبا عنه أحمد بن طولون .

وقد أدت سياسة اقطاع الاتراك ولاية مصر الى نتيجة لم تكن فى الحسبان . اذ كان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس ، كما كان الخليفة نفسه

يرحب ببقائهم في العاصمة خوفا من أن يستقلوا بالبلاد التي كانوا يحكمونها . فكان هؤلاء الأتراك لا يحكمون بأنفسهم بل يستخلفون من يقوم بالأمر نيابة عنهم على أن يحمل اليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة . واذ كان الخلفاء يراقبون أصحاب الاقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد فإنه لم يكن في استطاعتهم ، أو لم يدر بخلدهم أن يراقبوا نوابهم.

الفصل الرابع
أحمد بن طولون في مصر

وصل ابن طولون الى مصر فى رمضان سنة ٢٥٤ هـ (منتصف
سبتمبر سنة ٨٦٨ م) ومعه تابعه الشاب ، الواسطى ، الذى كان
قد عهد اليه بخدمة المستعين حين كانت حراسته موكولة اليه.
والمعروف أنه اصطحب معه بعض الجند ولعله أراد بذلك أن
يدافع عن نفسه فى أى ثورة قد يقوم بها الشعب ضده ، أو أن
يحبط الدسائس التى قد يدبرها سائر الموظفين . ولقى ابن طولون
عند وصوله احمد بن المدبر عامل الخراج ، وشقيق الخادم عامل
البريد ، وكان شقيق من موالى قبيحة والدة المعتز . والمعروف أن
عامل البريد كان موظفا فى مقر الخلافة أو السلطان ويرحل الى
سائر الأقاليم والولايات ليكون عينا للحكومة المركزية على الولاة
وغيرهم من الموظفين . أما ابن المدبر فانه جاء الى مصر عاملا على
خراجها . ولا نعرف بالضبط متى ولى خراجها فيذكر المقرئى
فى كتابه الخطط أنه ولى بعد سنة ٢٥٠ هـ ، وهناك نص فى تاريخ
اليعقوبى يشير الى أنه ولى سنة ٢٤٧ هـ . ويلاحظ بيكر Becker
حسب ما ورد فى أوراق البردى أن ابن المدبر ولى خراج مصر
منذ سنة ٢٤٧ هـ لا كما يذكر المقرئى بعد سنة ٢٥٠ هـ (١) .
وذكر ابن طباطبا حديثا لابن المدبر فى كتابه (الفخرى) يفهم

منه أنه كان فى السجن سنة ٢٣٣ هـ مع أحمد بن إسرائيل ،
وسليمان بن وهب الذى أصبح بعد ذلك وزيراً للمهتدى
(٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) . وكان أحمد بن المدبر وأخواه من الأدباء ،
ونسب إليه ابن النديم كتاباً سماه « المجالسة والمذاكرة » .
وأكبر الظن أن أسرة ابن المدبر ترجع إلى أصل فارسى . وكان ابن
المدبر داهية فى الحكم . ولاريب فى أنه حصل فى مصر على
سلطان واسع . وكان ابن المدبر قد بدأ حياته فى وظائف الدولة
فى عهد الخليفة الواثق ، وتقدم سريعاً فى أعمال المالية فى عصر
المتوكل . وعين سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٦ م) عاملاً على الخراج فى حصص
ثم جاء عاملاً على الخراج فى مصر كما ذكرنا . ولجأ ابن المدبر
إلى بعض الأساليب ليزيد الدخل فى الميزانية ولم يكن يرمى إلى
موازنة الدخل والمنصرف فحسب بل كان يريد جمع الأموال
الطائلة لنفسه ، وليقدم الهدايا والأعطيات إلى الحكومة المركزية
حتى يأمن على مركزه ، ولذلك نراه يغتصب ثروة الأغنياء ويطمع
فى أموالهم كما أدخل فى مصر ضرائب جديدة ولجأ إلى القسوة
فى جبايتها . وكان مما ابتدعه ابن المدبر أنه أحاط بالنطرون
(كربونات الصوديوم) وحجر عليه بعد أن كان مباحاً لجميع
الناس ، وفرض ضريبة على الكلاً الذى ترعاه البهائم سماها
« المراعى » ، وفرض ضريبة على ما يستخرج من البحر سماها
المصايد . وتبين من الأوراق البردية التى نشرها الأستاذ
آدولف جرومان أن ضريبة مراعى المواشى ، وضريبة الصيد فرضت

بين سنتي ٢٤٧ و ٢٥٣ هـ (١) . وانقسمت ضرائب مصر منذ مجيء
ابن المدبر الى ضرائب خراجية وهى التى تجبى سنويا ، وضرائب
هلالية وهى التى تجبى شهريا ، وعرفت الضرائب الهلالية باسم
« المرافق والمعاون » . وزاد يؤس الشعب فى مصر وأصبح ينوء
تحب عبء ثقل من الضرائب ، وقام ببعض ثورات فى الاسكندرية
وشرقى الدلتا والجيزة ، ولكنها أخمدت كلها بقسوة فظيعة . وكان
مقدرا أن تظل هذه الضرائب الثقيلة حتى يعهد بأمر مالية البلاد
الى أحمد بن طولون فيسعى فى إلغاء الضرائب التى أدخلها ابن
المدبر .

وقد لاحظ ابن طولون حين وصل الى مصر أن ابن المدبر كان
يعيش بها فى أبهة وفخامة ومظهر جليل يفوق ما كان للولاة أنفسهم
فكان يصحبه فى غدواته وروحاته حرس من مائة غلام امتازوا
بجمالهم وقوتهم البدنية ، وحسن هندامهم وابداع ملابسهم
الفاخرة . وقدم ابن المدبر للقاء أحمد بن طولون محوطة بحرسه
المذكور ، وقدم اليه هدية من نحو عشرة آلاف دينار فرفضها
ابن طولون ، وعجب ابن المدبر لذلك ، فانه لم يتعود قبل ذلك
أن ترفض هداياه . ولذا فقد طلب الى كاتبه أن يحرر رسالة
الى البلاط فى مقر الخلافة ليلفت نظر أولياء الأمر الى أن مثل

(١) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٥٨ وما ذكرته من
مراجع « القاهرة ١٩٤٧ » .

ابن طولون لا يجب أن يولى الا فى حاضرة الدولة أو ضواحيها ،
فلما استفسر منه الكاتب عن العلة فى ذلك أجاب بأن نفسا ترفض
هدية عشرة آلاف دينار ليس من الحكمة أن يوكل اليها أمراقليم
بعيد عن الحكومة المركزية . والمعروف أن أحمد بن طولون لم
يلبث أن بعث الى زميله ابن المدير يبلغه أنه يسره أن يتقبل منه
المائة حارس الذين يحيطون به فى غداوته وروحاته لأنهم ألزم له .
ولم يشأ ابن المدير أن يخاطر بالرفض ، فاضطر الى التنازل عن
هذا الحرس . وبفقدته فقد قسما وافرا من سلطانه وعظمة مظهره
التي كانت لا تتفق مع ما للوالى أو لنائبه من أسبقية على العامل
على الخراج .

ولا غرابة اذا رأيناه بعد ذلك يتحدث الى كاتبه
قائلا ان صفة أخرى تظهر فى أحمد بن طولون فهو يرفض المتاع
والمال ، ولكنه يطلب الحرس من الرجال الذين يستطيعون تأييده
والدفاع عنه .

ومنذ تلك الساعة بدأ النضال بين ابن طولون وابن المدير ،
ذلك النضال الذى انتهى بفوز ابن طولون . ولكنهما كانا
لا يتنازعا على تفوق السلطان وعلو الكلمة فى مصر نزاعا شخصيا
فى مصر بقدر ما كانا يتنازعا على ذلك بواسطة عمالهما
وجواسيسهما فى سامرا .

وكانت دسائس الجند الترك فى سامرا وما أحدثوه من شغب

قد أدى الى تغيير فى العرش . فان المعتز كان قد دعا الى مساعدته
الأمير الطاهرى من خراسان . فأرسل الأمير محمد عمه الى سامرا
وظن الجميع أنه سيضع حدا لاستبداد الجند الترك ولكن رؤساء
هؤلاء الجند أفلحوا فى حمل الخليفة على ابعاد هذا الأمير
الطاهرى . ولما تم لهم ذلك عادوا الى دسائسهم وشغبهم . وحاول
المعتز أن يستغل ما كان من الخلاف بين أحزابهم ، بل استطاع
أن يقضى على أحدهم وهو بغا ، ولكن الرؤساء الآخرين ، وعلى
رأسهم باكباك ، هاجموا الخليفة وطالبوه بأموال لم يستطع
دفعها فأساؤا معاملته واضطروه الى التنازل عن العرش ثم انتهوا
الى قتله سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م) . وخلفه المهتدى ابن الواثق .
ولكننا لنترك حكم المعتز قبل أن نشير الى مرحلة جديدة من مراحل
تفكك الامبراطورية بدأت فى عصره ، وهى ظهور بنى الصفار
فى الأقاليم الشرقية من الامبراطورية الاسلامية . والدولة الصفارية
تنسب الى مؤسس الدولة وهو يعقوب بن ليث الصفار الذى
نشأ فى سجستان ، بجوار هراة واشتغل فى حدائقه هو وأخوه
عمرو بصناعة الصفر (أى صناعة النحاس الأصفر والذهب) ، ثم
احترف الجهاد والقتال ولاسيما ضد الخوارج ، وصار له أتباع
يدينون له بالطاعة وينصرونه ، وأعجب به والى العباسى فعينه
قائدا لجنده . ولما توفى والى العباسى وخلفه ابنه ثار الصفار
ولم يلبث أن أصبح فى سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) السيد المطاع فى
الاقليم كله ، فطلب الى الخليفة أن يعينه واليا على اقليم «فارس»

على أن يسير اليها فيخرج منها على بن الحسين الذي كان قد تغلب عليها ، بل انه تقدم فعلا الى فارس وهزم والى ذلك الاقليم ودخل شيراز عاصمته ولكنه لم يمكث فيها طويلا . وأقلق نشاطه بالابلاط العباسي الذي كان منهمكا في حروب الزنج ، ولذا رأى العباسيون ، رغبة في تحويل نظره ، أن يقطعوه بلخ وطخارستان والسند ، ولكن هذا لم يحقق أطماعه فلم يلبث سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣م) أن أغار على خراسان وأخضع بنى طاهر ، على أن الخليفة لم يعترف بهذا الفتح ، ويقال انه ولى الصفار على خراسان وطبرستان وغيرها . ومهما يكن من الأمر فقد سار الصفار بجيشه الى العراق وهزمته جنود الخلافة عند دير العاقول بين بغداد وواسط وذلك سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦م) ، فراجع الى سجستان ومات فيها بعد ثلاث سنين . وخلفه أخوه عمرو فخضع للخليفة الذي أقطعه الأقاليم التي تتكون منها ايران الحالية تقريبا ، ولكن الكفاح ظل قائما بين الخلفاء وبنى الصفار مرة ، وبينهم وبين أعدائهم في ايران مرة أخرى . ولم يتح لعمرو الصفار أن ينعم بشيء من الراحة قبل سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦م) ومع ذلك فان هذه الراحة لم تدم طويلا ، اذ قام القتال بينه وبين السامانيين ، وأسر سنة ٢٨٧ هـ (٩٠٠م) وأخذ الى بغداد فأعدمه الخليفة المعتضد . وخلفه حفيده ولكنه أسر أيضا . وحاول بعض أقاربه أن يستردوا سلطان أسرتهم ، ولكن عبثا حاولوا فقد أقطعت بلاد سجستان

الى نبي سامان ، وظل بنو الصفار يناهضون الأمراء الجند
بعض الزمن .

أما بنو سامان فلم يكونوا من عامة الشعب كما كان بنو
الصفار . فالمعروف أن سامان كان من النبلاء الفرس وأن أحفاده
الأربعة ظهروا في خدمة المأمون فولاهم حكم بعض المدن في
خراسان حيث كانوا يتبعون بنى طاهر الى حد ما . فعين أحمد
على فرغانة ، ونوح على سمرقند ، والياس على هراة ، ويحيى على
شاش . ولما توفي نوح استولى أخوه أحمد حاكم فرغانة على
سمرقند وضم اليها كشغر ، ثم خلفه ابنه سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤م) ،
وهكذا نشأت الدولة السامانية التي قدر لها أن تحكم الى سنة
٣٨٩ هـ (٩٩٩م) حين قضى عليها هجوم الغزنويين في الجنوب
وأسرة الایلخان في الشمال . وكان لبنى سامان شأن عظيم فانهم
أخذوا خراسان من الدولة الصفارية وأخذوا طبرستان من العلويين
ثم كانوا عنصرا أساسيا في نهضة الآداب والفنون في ايران .
وفي عصرهم كانت بخارى وسمرقند من أعظم مراكز المدنية في
شرق العالم الاسلامي .

وهكذا نرى أن الأقاليم الشرقية من الدولة العباسية كانت
تفلت الواحد بعد الآخر من يد الحكومة المركزية ، بل ان العاصمة
العباسية نفسها لم تكن تأمن هجوم الجند من تلك الأقاليم .
وحاول الخليفة المهتدي أن يتخلص من نفوذ الترك في
سامرا . وكان عادلا وتقيا ولكنه لم يستطع رغم ذلك أن ينجو من

أيديهم فعذبوه وأرغموه على التنازل عن العرش ثم قتلوه سنة
٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) .

وقامت في عصره القصير ثورة كبيرة هي ثورة الزنج التي
كان مصير أحمد ابن طولون معلقا بها ، والتي سهلت استقلاله
الى حد كبير . وبلغت هذه الثورة غايتها العظمى في حكم المعتمد
الذي هجر سامرا وأعاد مقر الحكم الى بغداد .

واذا أردنا أن نصف حكم المعتمد فليس أفضل من النظر
في هذه السطور المقتبسة من كتاب الفخرى لابن الطقطقى : « كان
المعتمد مستضعفا ، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب
على أموره . وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع . كان هو
وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة ، للمعتمد الخطبة
والسكة والتسمى بأمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود
العساكر ومجاربة الأعداء ، ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء
والأمراء ، وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته » . والواقع أن
هذا الحكم الثنائي في عصر المعتمد كان له خطره في تاريخ مصر .
فسنرى أن أحمد بن طولون سيناضل الموفق دون الخليفة
نفسه .

وليس هذا غريبا في شيء فقد كانت الأنظار كلها متجهة الى
الموفق ولاسيما في كفاحه ضد الزنج .

وكان هؤلاء الزنوج عبيدا من السود قدموا الى البصرة من افريقية الشرقية . ولم تكن الثورة التي شغل الموفق بقمعها أولا ثورة قاموا بها فالمعروف أنهم ثاروا قبل ذلك فى عصر عبد الملك ابن مروان سنة ٧٦ هـ (٦٩٥ م) فقمع الحجاج ثورتهم فى ظرف قصير .

أما فى المرة التى نحن بصددھا الآن فان علويا قام فى عصر الخليفة المهتدى وادعى أنه من نسل الحسين بن على ، ولو أن معظم المؤرخين يعتبرونه خارجيا لا تجمعھ بالحسين صلة نسب أو قرابة . ومع ذلك فقد أصبح هذا العلوى محبوبا جدا فى البصرة لذكائه وقوة اقناعه . ثم أفلح فى اثارة الزنج الذين كانوا نازلين على مقربة من البصرة ، وجمع حوله كثيرا غيرھم من الساخطين أو المؤمنين بدعوته العلوية ، أو الراغبين فى السلب والغنيمة . والحق أن ثورة الزنج كانت تعبيرا عن مشكلة اجتماعية اقتصادية عميقة الجذور ، بل ان العنصر العباسى حفل بمثل هذه المشكلات التى كانت وراء الفتن والثورات المختلفة والتى كانت تتخذ المظهر الدينى قناعا لها . ففى العصر العباسى انتقل المجتمع من مجتمع زراعى الى مجتمع تجارى ونشأت طبقة رأسمالية من الارستقراطية العربية والارستقراطية الفارسية ، وانقسم المجتمع على أساس اقتصادى وليس على أساس عنصرى ، وتحكمت هذه الطبقة الرأسمالية فى الحياة الاقتصادية وأصبح لها الألوف المؤلفة من الأموال استغلتها فى التجارة الدولية التى ازدهرت منذ قيام الدولة العباسية . ونشأ

عن التوسع والازدهار التجارى تحسن فى أساليب الزراعة واتجاه الى امتلاك الضياع الكبيرة . وهكذا سيطرت فئة قليلة على موارد الرزق وتحكمت فيه وأدى هذا الى وقوع الجماهير من العرب والموالى فى وضع اقتصادى واجتماعى منخفض . وكانت ثورة الزنج أول صرخة اجتماعية اقتصادية خطيرة فى العصر العباسى الثانى ضد النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد . اذ لجأ بعض أصحاب الضياع الواسعة الى استخدام العبيد فى مزارعهم ونظم التجار الحملات لاصطيادهم أو لشرايهم من شرق افريقية وأواسطها ، وخاصة من الصومال وزنجبار ، وجلبوا منهم الألوف . واستخدم الزنج فى مختلف جهات العراق ولاسيما فى الأراضى المحيطة بالبصرة . وكانوا يشتغلون عادة جماعات تتراوح بين ألف وخمسة آلاف ، وقد يكون العدد أكثر من هذا بكثير اذ بلغ عدد احدى الجماعات التى كانت تشتغل على نهر الدجيل خمسة عشر ألفا . وكانت ثورة الزنج تشبه من وجوه كثيرة ثورة العبيد المشهورة فى التاريخ الرومانى . ولم يكن الرقيق فى الحياة الاسلامية مثل اخوانهم فى ظل الحياة الرومانية الذين كانوا عماد الانتاج ودعامته ، وانما اعتمد الانتاج الاسلامى فى الغالب على الفلاحين الأحرار والصناع أما العبيد فكانوا يستخدمون فى الأعمال المنزلية أو فى الجيش . ولكن تغير الظروف الاقتصادية فى العصر العباسى كما ذكرنا غير من هذا الوضع فاستخدم العبيد فى عدد من المشروعات الواسعة مثل تجفيف المستنقعات والزراعة .

وكان الشعور بالولاء الذى يربط العبد بسيده فى المجتمع الاسلامى معدوما عند هؤلاء الزنوج ، وأدى تكتلهم على نطاق واسع الى سريان التذمر من وضعهم الاقتصادى والاجتماعى والى بعث شعور عام بينهم بالمصلحة والقيام ضد أسيادهم .

فكانت ثورة الزنج تستهدف تحرير الرقيق من الزنوج فقط كما أنها تكشف لنا عن مدى فظاعة استغلال الرقيق بشكل يخالف مبادئ الاسلام كما يمثل جشع أصحاب رءوس الأموال . وأتى الزنوج فى ثورتهم بفظائع ومنكرات أسهب الطبرى فى التحدث عنها وهى تظهر شدة حقد الزنوج على أسيادهم وحنقهم على المجتمع الاسلامى . ولم تنقضى هذه الثورة الا بعد أن خربت مزارع قسم كبير من السواد جنوبى العراق ودمرت عددا كبيرا من قراه ومدنه الهامة مثل البصرة والأبلة .

وقد سار هؤلاء الزنج الى البصرة وعلى رأسهم زعيمهم العلوى فاستولوا عليها وبدءوا سلسلة من الغزوات أصابت وادى الفرات الأدنى بكثير من الخسائر ، ثم غزوا اقليم الأهواز (شرقى منطقة البصرة وهى عيلام القديمة) حيث سجنوا العامل على الخراج فيها وهو ابراهيم بن المدبر أخ احمد بن المدبر الذى كان يتولى مثل هذه الوظيفة فى مصر حين قدم اليها احمد بن طولون .

وظل القتال نحو أربعة عشر عاما بين هؤلاء الثوار وجند الخليفة . والحق ان جند الخليفة كانوا فى ذلك الحين لا ينقطعون

عن الحرب في جهة الا ليحاربوا في جهة أخرى . وقد ذكرنا أنهم هزموا الصفار في دير العاقول . والظاهر أن الصفار ادعى أنه لم يهاجم جند الخليفة الا لافلاس الخليفة في مهمته وعجزه عن اقرار الأمن في البلاد . وذكر المسعودي في هذا الصدد : « ويقال ان يعقوب بن الليث قال انه خرج منكرا على المعتمد ومن معه من الموالي اضاعتهم الدين واهمالهم صاحب الزنج فقال :

خراسان أحويها وأعمسنا فارس
وما أنا من ملك العراق بآيس
إذا ما أمسور الدين ضساعت وأهملت
ورثت فصسارت كالرسموم الدوارس

خرجت بعسور الله يمننا ونصرة
وصاحب رايات الهدى غير حارس .»

ومهما يكن من الأمر فان الحروب الطويلة بين حكومة الخليفة من ناحية ، والزنج من ناحية أخرى قاسى بسببها سكان وادى الفرات الأدنى ولا سيما أن الفريقين اتخذوا لهما مراكز حصينة أعظمها معسكر صاحب الزنج وسماه المختارة ، بينما سمى الموفق معسكره الموفقية . وأخيرا نجح الموفق بعد أربعة عشر عاما في هزيمة الزنج وحملت رأس زعيمهم الى بغداد .

وهكذا نرى أن الدولة العباسية كانت مهددة في الشرق بمحاولة الحكام أن يستقلوا بما في أيديهم ، وكانت مهددة في

الجنوب بثورة الزنج التي شغل باخضاعها الموفق ، وهو الرجل الوحيد الذي كان يمكنه أن يقاوم أى حركة استقلالية يقوم بها أحمد بن طولون . وكانت فضلا عن ذلك مهددة بما بين الخليفة وأخيه الموفق والجند الترك من نزاع ودسائس . ولاعجب إذن أن انتهر ابن طولون هذه الفرص ليصبح صاحب الأمر في مصر وادى النيل .

وجاء في ابن اياس أن ابن طولون لما دخل مصر « كان في أضيق حال يحتقره كل من يراه ، قيل كان بصير رجل من الأعيان يقال له على بن معبد البغدادي ، وكان في سعة من المال ، فلما بلغه حضور الأمير أحمد خرج الى تلقيه فلما رآه في ضيق حال أرسل اليه عشرة آلاف دينار فقبلها ، ورأى بها موقعا . وحظي ذلك الرجل عنده فكان لا يتصرف في شيء من الأمور الا برأى ذلك الرجل وتضاعفت عنده منزلته الى الغاية » .

ولسنا نعجب إذن من تفكير ابن المدير حين رفض ابن طولون هديته على الرغم مما كان فيه من فقر ، ثم حين طلب منه ، بدلا من المال ، العبيد الذين كانوا يحرسونه والذين كان يفتخر بهم ويدلون على ما كان له من حول وسلطان .

ولما أدرك ابن المدير وشقير ان أحمد بن طولون سيكون صعب المراس ، وأن نفوذه سيغطي على ما كانا يتمتعان به من سلطان فقد بدءا دسائسهما وكتب شقير الى عاصمة الخلافة أن

ابن طولون يستعد للاستقلال بمصر . ولكن ابن طولون كانت له علاقة طيبة ببعض أقطاب الحكم في سامرا . بل انه كان قد أفلح في استمالة حسن بن مخلد ، بالهدايا وكان حسن هذا قد أصبح وزيرا للمعتمد مع بقاءه كاتبا لأخيه الموفق . وأسدى حسن ابن مخلد الى ابن طولون خدمة جليلة فلم يكن يخبره بالدسائس التي كان يدبرها اعداؤه ضده فحسب بل ارسل اليه الكتاب الذي كان شقير قد أرسله الى عاصمة الخلافة . وكذلك عرف أحمد بن طولون من أعوانه وعيونه في سامرا ما كان يدور حول قضيته . وحدث في ذلك الوقت أن اعتزل الخليفة المعتز وقتل وبلغ ابن طولون ذلك فأدرك زوال سلطان أم المعتز التي كان شقير مولى لها ، ومن ثم أرسل في طلبه ليسأله عما كان يدبره ضده وليجزيه على ذلك شر الجزاء . والظاهر أن الشرطة الذين وكل اليهم أمر احضار شقير أوسعوه ضربا وتعذيبا حتى لم يبق الا ارجاعه الى منزله وتركه ليموت .. وقيل في رواية أخرى ذكرها اليعقوبى في تاريخه أن المعتمد عزل شقيرا من منصبه في مصر .

أما ابن المدبر فان ابن طولون لم يكن يستطيع أن يعامله بنفس الطريقة لأن الأول كان في امكانه أن يكسب الأنصار والأعوان في العراق بما كان يقدقه من العطايا ، فضلا عن ذلك كله فان أخاه ابراهيم بن المدبر كان قريبا من بلاط الخليفة . وقد مر بنا الحديث عن ابراهيم وأسره على يد الزنج ثم فراره ، ونضيف هنا أنه كان شاعرا وكاتبا وأديبا ، وتولى عدة وظائف جليلة . وذكر

ياقوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » أنه وزر للخليفة المعتمد على الله لما خرج من سر من رأى يريد مصر ومات فى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢م) وهو يتقلد للمعتمد ديوان الضياع ببغداد .

ومهما يكن من الأمر فإن سلطان ابن طولون ونفوذه بدأ فى الزيادة ، وخير دليل على ذلك موقفه مع بعض ولاة الأقاليم فى مصر . فالمعروف أن بعض هؤلاء الولاة اعتاد ألا يعنى بوالى مصر ، وأن يعمل مستقلا وبدون خضوع لأوامر العاصمة فى مصر ، أما لأنهم عينوا مباشرة من قبل صاحب الاقطاع ، وأما لأنهم ظنوا أنفسهم من القوة بحيث يستطيعون أن يستيحيوا الاستهانة بالوالى . ولكن ابن طولون عمل على فرض سلطانه عليهم بشتى الوسائل .

وحدث فى العراق وفى الشام أشياء جعلت الفرصة سانحة لأن يظهر أحمد بن طولون مهارته السياسية ومكنته من تجديد جيش كبير . والواقع أن دسائس رؤساء الجند الترك فى سامرا سهلت مهمته الى حد كبير ، فإن هذه الدسائس حملت الخليفة المهتدى على معاداة باكباك فأمر بضرب عنقه والقاء رأسه على أتباعه . وأقطعت مصر الى رئيس من رؤساء الجند الترك هو يارجوخ ، وفى بعض الروايات ماجور . والظاهر أن الخليفة المهتدى أراد أن يكسب هذا الزعيم فمنحه امارة مصر . وذكر المسعودى أن زعيمين من زعماء الجند الترك لم يشتركا فى اعتداء مواطنيهما على

ال خليفة ، وأحد هذين الزعيمين هو يارجوخ . ولكن الذى يعنينا
ينوع خاص هو أن يارجوخ كان حما ابن طولون . ومما يلفت
النظر أن ابن خلدون فى تاريخه لم يذكر هذه القرابة ، بل أشار
الى المودة العظيمة التى كانت بين الرجلين .

ولم يكتف يارجوخ بتثبيت صهره أحمد بن طولون فى النيابة
عنه بمصر ، بل منحه سلطانا كاملا على البلاد . وكتب المقرئى
فى ذلك فى كتابه الخطط « واتفق موت المعتز فى رجب سنة
أخمس وخمسين وقيام المهتدى بالله محمد بن الواثق وقتل باكبك
ورد جميع ما كان بيده الى ماجور التركى حمو ابن طولون فكتب
اليه : تسلم من نفسك لنفسك ، وزاده الأعمال الخارجة عن قصة
مصر ، وكتب الى اسحق بن دينار وهو يتقلد الاسكندرية أن
يسلمها لأحمد بن طولون ، فعظمت بذلك منزلته » . ونلاحظ
هنا أن المقرئى يسمي حما ابن طولون ماجور وليس يارجوخ .

وهكذا لم يبق لأحمد بن طولون الا التخلص من أحمد ابن
المدير . حقا أن ابن المدير — على حد قول المقرئى « كثر قلقه
وغمه ودعته ضرورة الخوف من ابن طولون الى ملاطفته
والتقرب من مخاطره » ، ولكنه لم يقلع عن الكتابة ضد ابن
طولون . وكان حسن بن مخلد وبعض أعوان ابن طولون وعيونه
يرسلون اليه الكتب التى كان ابن المدير يبعث بها الى مقر
الخلافة . فلم ير ابن طولون بدا من مضاعفة الجهد حتى استطاع

أن يحصل من الخليفة المهتدي على عزل ابن المدبر من ولاية الخراج في مصر . وعين بدله عامل آخر هو محمد بن هلال ، ولكنه كان خاضعا لابن طولون . ولدينا دليل مادي على وجوده ، هو قطعة من النسيج محفوظة في دار الآثار العربية عليها سطر من الكتابة بالخط الكوفي البسيط من الحرير الأحمر ، ونصها :

« (بركة من الله لعبد الـ) له محمد الامام المهتدي (ي) بالله أمير المؤمنين أيده الله مما عمل بالسليد (؟) بالسكند (رية) على يد محمد بن هلال سنة ست وخمسين ومأتين» (١) .

ولكن هذا العامل الجديد على الخراج لم يمكث في عمله طويلا ، لأن قتل الخليفة المهتدي أدى الى تولية المعتمد فارتفعت أسهم ابراهيم بن المدبر في بلاطه ، وأعيد أحمد بن المدبر الى ولاية الخراج في مصر ، ولكنه لم يستعد سلطانه الأول ، وذلك بفضل نشاط ابن طولون وقوة شكيته .

وحدث في هذا الوقت أن أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني والى فلسطين والأردن كان قد توفي واستولى ابنه على أعماله وشق عصا الطاعة على الخليفة ، ثم استولى على سبعمائة وخمسين ألف دينار كانت مرسلة من مال مصر الى العراق . وفكر الخليفة المهتدي في أن يكل الى ابن طولون أمر اخضاع ذلك الثائر .

Zaky M. Hassan : Les Tulunides,

(١) انظر :

p. 46 وما ذكره من مراجع .

وكان أحمد بن طولون لا يتأخر عن القيام بذلك لأن ابن الشيخ لم يكن ثائرا على الخلافة فحسب ، بل كان منافسا خطيرا وجارا مقلقا لابن طولون ، والظاهر انه كان يطمع في ملك مصر . ونص المقرئ في الخطط ، على ذلك بعبارة مختصرة فكتب « وكانت الأمور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ في التغلب على الشامات وأشيع أنه يريد مصر » .

وبادر ابن طولون بتعبئة ما لديه من الجند ، كما عني بالأسراع في تكوين جيش قوى يساعده في إخضاع ابن الشيخ ويكون في الوقت نفسه عدته في نجاح قضيته الشخصية حين يرى الوقت مناسبا لاثارتها . ولذلك طلب ابن طولون اذن الخليفة في شراء عدد كبير من العبيد الترك والسودان والحش وسكان جزائر البحر المتوسط . أما ابن الشيخ فقد أبى أن يعترف بسلطان المعتمد ، وهو الخليفة الجديد . وعرض عليه المعتمد أن يوليه أرمينية اذا قبل الخضوع ونزع عن الشام فرفض ، ولعله كان يريد الجمع بين الولايتين ، وأن يضيف اليهما مصر اذا استطاع الى ذلك سبيلا . ولكن المقرئ ذكر في هذه المسألة رواية أخرى . قال : « فلما قتل المهدي في رجب سنة ٢٥٦ وبويع المعتمد بالله أحمد بن المتوكل لم يدع ابن شيخ له ، ولا بايع هو ولا أصحابه ، فبعث اليه بتقليد أرمينية زيادة على ما معه من بلاد الشام وفسح له في الاستخلاف عليها والاقامة على عمله فدعا حينئذ المعتمد » .

وعلى كل حال فإن المعتمد كتب الى ابن طولون ليتأهب
لحرب ابن شيخ « وأن يزيد في عدته ، وكتب لابن المدير أن يطلق
له من المال ما يريد ، فعرض ابن طولون الرجال ، وأثبت من
يصلح واشترى العبيد من الروم والسودان ، وعمل سائر
ما يحتاج اليه » .

وبعد أن تم كل هذا الاستعداد كتب ابن طولون الى ابن
الشيخ يدعوه الى الخضوع فلم يفعل . واستخلف ابن طولون على
مصر أخاه موسى . وسافر على رأس جنده الى أن وصلوا حدود
فلسطين . ولعله كان حريصا كل الحرص على ابقاء جيشه سليما
لينفعه في فرص أخرى ، اذا كان في استطاعته أن يتجنب الحرب .
فاننا نرى انه كتب مرة ثانية الى ابن الشيخ يدعوه الى الخضوع
والى ارجاع المال الذي كان مرسلا من مصر الى العراق والذي
اغتصبه حين مروره في أرضه . ولما لم يتلق ابن طولون من
خصمه ردا مرضيا استعد لمهاجمته ، ولكنه تلقى من الخليفة أمرا
بالعودة الى مصر . وعهد بأمر اخضاع ابن الشيخ الى اماجور
الذي أقطع الشام . فهل أدرك الخليفة في اللحظة الأخيرة أن من
الحكمة منع ابن طولون من التوغل في الشام لئلا يضمها الى مصر
ويستقل بهما ؟ ! أو هل كان المطلوب التخلص من اماجور بتكليفه
أن يخضع ذلك الثائر الخطر ؟ ! وعلى أية حال فقد غنم ابن طولون
من الأمر كله ، اذ رجع بجيشه كاملا وصار هذا الجيش في يده
أداة قام عليها سلطانه وسلطان ابنه خمارويه من بعده .

ومر بنا أن يارجوخ أضاف لأحمد بن طولون بجانب أعمال مصر ثغر الاسكندرية . ونلاحظ أنه منذ العهد اليونانى فى مصر حتى قيام الدولة الأخشيديية فى مصر الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى كانت الاسكندرية تعتبر فى معظم الأحيان جزءا مستقلا عن مصر ، أو عملا قائما بذاته (١) . وكان يحكم ثغر الاسكندرية اسحق بن دينار ، فلما تسلم ابن طولون الأمر بتقليده الاسكندرية سافر اليها فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) وتسلمها من اسحق ولكنه كان من الحكمة بحيث تركه يدير شئونها من قبله .

وكذلك اعترف أحمد بن عيسى الصعيدى والى برقة بسلطان ابن طولون ، وكانت برقة تتبع مصر .
ولما رجع ابن طولون من فلسطين أسس لنفسه مقرا جديدا للحكم .



ولنلق الآن نظرة على الشام لنرى ما حدث فيها بعد عودة أحمد بن طولون . فأما جور الوالى الذى أرسله الخليفة لحكم الشام واخضاع ابن الشيخ لم يلق عناء كبيرا فى اتمام مهمته ، اذ هزمت جيوش عيسى بن الشيخ وقتل ابنه وسجن كبير معاونيه ولكن عيسى نفسه أفلح فى الفرار الى ارمينية حيث استولى على

(١) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٢١٩ « مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٠ م » ، سيدة كاشف : مصر فى فيجس الاسلام : ص ٢٤٤ « القاهرة ١٩٤٧ »

الحكم فيها ، وظل كذلك حتى وفاته . أما في الشام فقد قضى
أماجور على كل مقاومة وتسلم حكم البلاد ، ولم يفته أن جوار
ابن طولون كان خطرا كبيرا عليه لأن سلطان ابن طولون كان
يزداد بسرعة كبيرة كما كانت تزداد ثروته أيضا . وأدرك أماجور
أن ابن طولون لا بد وأن يمد حدود مصر الى الشام . ولذا نرى
أماجور يشترك مع ابن المدبر في تحذير الخليفة من أحمد بن
طولون ، ولكن سعيهما كان متأخرا عن الوقت المناسب .

وكان أحمد بن طولون يعلم أمر هذه الدسائس أولا بأول
وكان يعمل على احباطها بكل ما لديه من حيلة أو مال . وكان
أماجور قد كتب الى المعتمد أن جند ابن طولون أصبحوا أوفر
عددا من الجند الذين كانوا لعيسى بن الشيخ وأن ابن طولون
قد أصبح السيد المطاع في مصر ومن الراجح أنه سيعمل على
الاستيلاء على الشام .

ولذا نرى الخليفة يكتب الى ابن طولون أن يترك في مصر
نائبا عنه وأن يسافر الى سامرا ليتولى منصبها فيها . وفهم ابن
طولون الغرض من استدعائه وابعاده عن مصر فضلا عن أن عيونه
في سامرا أحاطوه علما بكل ما كان يجري من المؤامرات ضده ،
فلم يبادر بتنفيذ الأمر الصادر اليه ، بل بعث الى سامرا كاتبه
وموضع ثقته الواسطي . وذهب الواسطي الى سامرا في سنة
٢٥٧ هـ (٨٧١ م) ومعه الهدايا والأموال لأولياء الأمر في بلاط

ال خليفة و بطاتته ولا سيما الوزير حسن بن مخلد . و طبعى أيضا أن يعمل يارجوخ على نصرة زوج ابنته ، و هكذا عمل الجميع على أن يرجع الخليفة عن رأيه فى استدعاء ابن طولون . و استطاع الواسطى أن يبشر ابن طولون بهذا النجاح العظيم . و يظهر أيضا أن أفرادا من أسرة ابن طولون كانوا لا يزالون فى سامرا ، و ربما كان الغرض ابقاءهم رهينة هناك ، هؤلاء الأفراد تركوا هناك فى هذه المناسبة أحرارا يرحلون الى مصر ، و قد فعلوا ذلك .

و قلق ابن المدبر لهذا النجاح الذى أحرزه أحمد بن طولون و أدرك ألا فائدة ترجى من محاربته و مخاصمته ، فكتب الى أخيه ابراهيم بن المدبر يطلب أن يسعى فى تعيينه عاملا على الخراج فى جزء آخر من الدولة الاسلامية . فعينه الخليفة لفلسطين و دمشق و الأردن . و كان ابن المدبر حكيما بعيد النظر فأدرك انه لن يكون فى منصبه الجديد بعيدا عن ابن طولون كل البعد فعمل على أن يحسن علاقته معه قبل أن يغادر مصر ، بل ان المؤرخ ابن سعيد يحدثنا أن ابن المدبر زوج ابنته الى خسارويه بن أحمد بن طولون و مهرها بما كان له من عقار ثابت فى مصر لم يكن يستطيع نقله منها . و كان ابن المدبر يظن أنه بذلك كله يستطيع أن يأمن جانب ابن طولون ، و كان الظاهر أن المودة سادت بينهما ، و لكنها كانت مودة مؤقتة فان ابن طولون لم يتأخر بعد ذلك عن عزل خصمه القديم فى أول فرصة لاحت له بعد أن احتل الشام و خلف ابن المدبر على خراج مصر عامل أرسله المعتمد واسمه أبو أيوب

أحمد بن محمد بن أخت أبي الوزير ، ولكنه كان ضعيف السلطان حتى اتنا نرى ان الخليفة المعتمد حين أراد الحصول على الخراج كتب الى ابن طولون نفسه ، ولم يكتب الى عامل الخراج المذكور .

والظاهر أن الخليفة أراد أن يحصل على خراج مصر لنفسه فينفقه في شئونه ويكتم مقداره عن الموفق وعن الجند الترك الذين كانوا يحكمون الدولة في ذلك الوقت . فكتب اليه ابن طولون انه لا يستطيع أن يسلم الخراج الى رسله بدون علم أولياء الأمر في حكومة العراق الا اذا كانت بيده مقاليد الأمور المالية في مصر .

ولذا نرى الخليفة المعتمد يرسل تابعه نسима الى ابن طولون ومعه تقليد لابن طولون بتولى الخراج في مصر بل وفي الشغور الشامية أيضا . ولا نعرف هل كان الخليفة يريد مكافأة أحمد ابن طولون ، أو كان يريد أن يقذف به وينهك قوته ضد البيزنطيين الذين كانوا حينئذ قد أظهروا نشاطا كبيرا ؟ .

وفي سنة ٢٥٨ هـ (٨٧٣ م) مات يارجوخ حمو أحمد بن طولون ولا يتفق المؤلفون في تعيين الشخص الذي أقطع مصر من بعده فابن خلدون يحدثنا أن ابن طولون استقل بالحكم . وكتب بعض المستشرقين مثل وستفلد ، ولين بول ، ومرجليوث ، أن مصر أقطعت للموفق بعد وفاة يارجوخ .

والراجح أن هذا ليس صحيحا . فقد كان الموفق يدير شئون الدولة ولكنه لم يكن صاحب اقطاع مصر . والمعروف أن الخليفة المهتدي كان قد نفى الموفق الى مكة ، ولما تولى المعتمد استدعى أخاه الموفق من الحجاز وخلع عليه . ونستخلص مما كتبه المؤرخون الذين يهتمون بتاريخ مصر على الخصوص مثل ابن سعيد والسكندی والمقریزی وأبى المحاسن وابن خلدون ، أن الخليفة المعتمد اعترف بأخيه الموفق وليا للعهد بعد ولي العهد الشرعى جعفر المفوض بن المعتمد . وقسم المعتمد الدولة بين وليي العهد فكان للموفق الجزء الشرقى ولجعفر المفوض الجزء الغربى وفيه مصر .

وأكبر الظن أن جعفر هو الذى خلف يارجوخ مباشرة فى اقطاع وادى النيل . حقا ان اسم الموفق كان يذكر فى الخطبة بمصر ولكن ذلك كان بوصفه وليا للعهد بعد جعفر المفوض .

على أن المفوض كان حديث السن فلم يستطع أن يدير بنفسه القسم الذى أقطع اياه واختير أحد الجند الترك ليكون مديرا لهذا القسم وهو موسى بن بنا ، وكان أبوه بغا الكبير من قواد الجيش العباسى أيام المعتصم . ولكننا لا ننكر أن هذا التقسيم كان نظريا الى حد كبير لأن السلطان كله كان فى يد الموفق .

ومهما يكن من الأمر فان هذه الفوضى فى سامرا شجعت ابن طولون على تحقيق مطامعه ولا سيما حين أصبحت له الادارة

المالية في البلاد . ولكنه كان اداريا حكيما ، فلم يجمع في يده كل الوظائف التي كان له تقليدها بل أبقى أبا أيوب أحمد بن محمد في ادارة الخراج على أن يتولاه من قبله ، وطبيعى أن السلطان الأعلى في الشؤون المالية كان لابن طولون نفسه . بل انه عين لأبي أيوب كاتباً بخيلاً اسمه عبد الله بن دشومه كما أضاف اليهما تابعاً له نعيم ليكون عينا له عليهما .

واذا صح ما ذكره مؤرخو المدرسة المصرية فإن أول عمل مالى عنى به ابن طولون هو الغاء المكوس والضرائب التي كان ابن المدير قد أثقل بها كاهل الشعب .

وهكذا رأينا المرحلة الأولى في سلطان ابن طولون منذ أتى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) نائبا للوالى حتى استطاع بعد خمس سنوات أن يضم لنفسه ادارة الخراج في البلاد وأن يكون أميرا على مصر كلها بما في ذلك الاسكندرية وبرقة وأن يكون جيشا وأن يبنى عاصمة جديدة له .

ولم تكن هذه المدة عصر سلام داخلى شامل فقد لقي ابن طولون في مصر بعض صعاب داخلية أولها ثورة بغا الأصغر التي قامت بعد قدوم ابن طولون الى مصر ببضعة شهور والمعروف أن المؤرخين يذكرون ثلاثة أشخاص باسم بغا : بغا الكبير ، وبغا الصغير ، وبغا الأصغر . والظاهر أن بغا الأصغر كان أخا صغيرا أو ابنا لبغا الصغير الذى نعرف أنه قتل بأمر الخليفة المعتز .

وعلى كل حال فإن بغا الأصغر ترك العراق منتقيا أو مختارا ونزل مع فريق من أنصاره بين برقة والاسكندرية في موضع يسمونه الكنائس ، ثم ثار واتجه مع أعوانه الى الصعيد فأرسل اليه ابن طولون جيشا هزمهم وحمل رأسه الى القسطنطينية .

وكتب الكندي والمقريزي وأبو المحاسن أن بغا هذا كان اسمه أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا . ولكن مارسيل Marcel أحد المستشرقين ذهب الى أن أحمد هذا كان ثائرا علويا آخر غير بغا . وفي رأينا أن هذا الرأي أكثر احتمالا ولكننا لا نعرف المصدر الذي اعتمد عليه مارسيل في الوصول اليه . (١)

والظاهر أنه قامت في مصر العليا اضطرابات وفتن على يد فريق من العلويين ولكن ابن طولون نجح في اخمادها .

ولعل أهم هذه الفتن ما قام به ابن الصوفي والعمري . أما ابن الصوفي فهو من نسل الامام علي . وذكر الكندي والمقريزي أنه : ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر ابن علي بن أبي طالب . أما ابن خلدون فلم يذكر في نسبه «عمر» فيكون والحالة هذه من نسل محمد بن الحنفية وأخا غير شقيق للحسن والحسين .

والمعروف أن ابن الصوفي ثار سنة سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م)

واستولى على اقليم اسنا في مصر العليا . ثم استولى في العام التالي على تلك المدينة نفسها واستباحها أنصاره وقتلوا من سكانها خلقا كثيرا . فبعث اليه ابن طولون جيشا بقيادة «ازداد» ولكن ابن الصوفي هزم ذلك الجيش وقتل ازداد ومثل به . فبادر ابن طولون بارسال جيش آخر بقيادة بهم بن الحسين الذي كان قد أخذ ثورة بغا . وأفلح « بهم » في هزيمة ابن الصوفي على مقربة من اخميم واضطره الى الاعتصام بأحدى الواحات في الصحراء الغربية حيث ظل ساكنا نحو أربع سنوات .

وفي سنة ٢٥٨ هـ (٨٧١ م) خرج من عزلته وجمع حوله أنصارا جددًا وصوب شطر مدينة الأشمونين (مركز ملوى محافظة أسيوط) بمصر العليا .

ولكننا نجد أن حركته تتصل بعد ذلك بحركة أخرى قام بها شخص غريب يسمونه العمرى .

وكان العمرى هذا قد وطد سلطانه في أقصى جنوب مصر وفي حدود النوبة . والمعروف أنه من نسل الخليفة عمر بن الخطاب وأنه قضى جزءا من حياته في القيروان ببلاط بنى الأغلب وأنه كان عالما فقيها . وأتيح له أن يجمع حوله في أعالي الصعيد كثيرا من الأنصار ، وأن يضم اليهم من اشتراهم من الرقيق حتى أصبح لديه جيش لا يستهان بقوته . ووقف في تلك الأصقاع موقف المدافع عن الاسلام وأخذ على عاتقه الدفاع عن كورة

أسوان ضد النوبيين . وطبيعى أن ابن الصوفى كان ينظر الى نجاح
العمرى بشيء كثير من القلق ، وكان يخشى أن يلتفت اليه ويهدد
نفوذه بعد أن ينتهى من تأمين حدوده الجنوبية . أما أحمد بن
طولون فكان يود أن يستطيع التخلص من التأثيرين .

وفى سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤ م) سار ابن الصوفى لقتال العمرى
فى شمال بلاد النوبة ولكن جنوده هزموا شر هزيمة وتركوا
قائدهم ففر الى أسوان . وسافر ابن الصوفى من أسوان الى ميناء
عذاب على البحر الأحمر ومنها الى مكة ، بعد أن علم أن ابن
طولون قد سير جيشا لقتاله . والظاهر أنه أبعد من مكة فأعيد
الى مصر وسجنه ابن طولون فترة من الزمن ثم أطلق سراحه
فعاش فى المدينة المنورة حتى مات .

ولكن العمرى كان أشد خطرا على ابن طولون فقد استفحل
أمره ، وبعث ابن طولون جيشا كبيرا لاختصاعه . وأراد الجند أن
ينتهبوا فرصة اشتغال العمرى بقتال النوبيين ، واحتج العمرى
بأنه غير ثائر وقال لرئيس الجند ان ما يعلمه ابن طولون عنه ليس
صحيفا وإنما هى شكوك لا أساس لها وانه لم يسيء الى أى
مسلم قط وإنما خرج لقتال أعداء الاسلام . وطلب العمرى الى
قائد الجند أن يترث وأن يترك له فرصة لكى يكتب الى الوالى
شارحا حقيقة حاله فان قبل عذره وتركه حرا كان بها ، والا
فالرجوع الى تنفيذ أوامره بالقتال . ولكن قائد الجند لم يعر

كلام العمرى آذانا صاغية وبدأ القتال بعنف شديد ، واضطر
العمرى الى القتال في جبهتين : في الشمال ضد الطولونيين ، وفي
الجنوب ضد النوبيين . ومع أن الطولونيين كانوا أوفر عددا فقد
أوقع بهم العمرى هزيمة شنيعة .

وغضب أحمد بن طولون على قائد جنده لأنه لم يترك للعمرى
الفرصة للكتابة اليه ، وعنفه قائلاً ان الله منح العمرى النصر لأن
قواد الجند الطولونيين كانوا مستبدين ظلمة .

أما خاتمة قصة العمرى فنعرفها من نصين لابن الداية ، الأول
في كتابه المكافأة ، والثاني في ترجمة أحمد بن طولون التي نقلها
عنه ابن سعيد والنصان متفقان تقريباً وتبين مما ذكره ابن الداية
أن بعض غلمان العمرى تمكنوا من قتله وبعثوا برأسه الى أحمد
ابن طولون .

الفصل الخامس
أحمد بن طولون والموفق

رأينا كيف قسم الخليفة المعتمد الدولة بين ابنه جعفر المفوض وأخيه الموفق ، وعرفنا أن الموفق كان يقوم بسلسلة حملات طويلة وباهظة النفقات لاختضاع ثورة الزنج . وطبيعى أن دخل الأقاليم الشرقية التى كان هو صاحب اقطاعها لم يكن كافيا للاتفاق على تلك الحرب السجال .

ومع أن من شروط تلك القسمة أن كلا من الأميرين ينفق على أقاليمه من دخلها الخاص فاننا نرى الموفق لا يتأخر عن أن يطلب من مصر ما كان يحتاج اليه من نفقات . ولعله كان يعتقد بحق أن الزنج كانوا أعداء الدولة كلها وأنه بوصفه القائد الأعلى لجند الامبراطورية الاسلامية كان له الحق فى الحصول على المعونة المالية من جميع أقاليم الدولة ، وليس من الأقاليم التى كان هو صاحب اقطاعها فحسب .

وعلى أية حال فان الموفق أرسل الى احمد بن طولون شخصا اسمه نحرير ، كان فى خدمة أبيه المتوكل مدة طويلة ، وأمره أن يطلب من والى مصر أن يرسل الى بيت المال ، وبمعنى أدق ، الى الموفق نفسه ، النقود والمنسوجات والعبيد والخيل والشمع وما الى ذلك من الجزية التى اعتادت مصر ارسالها الى العراق فى كل عام . وأكبر الظن أن نحريرا كان يحمل أوامر من المعتمد تأييدا

لطلب الموفق . ولكن الذى يهمنا هو أن المعتمد أرسل فى الوقت نفسه رسالة سرية الى ابن طولون يحذره فيها من تحرير ويخبره بأنه لم يرسل الى مصر الا بأرادة الموفق ، وبأنه جاسوس مكلف بتدبير الدسائس ضد ابن طولون نفسه بين ضباط الجند فى مصر.

فتنبه ابن طولون للأمر واستقبل تحريرا فى قصره وعمل على ألا يمكنه من الاتصال بأحد أثناء اقامته فى مصر فضلا عن أنه استولى على كل الرسائل التى كان تحرير يحملها من قبل الموفق الى اعيان مصر وكبار رجالها

وأجاب ابن طولون مطالب الموفق بكتاب رقيق سلمه الى تحرير مع مليون ومائتى الف دينار فضلا عن الخيل والأقمشة . وطبيعى أنه لم يرسلها خفية هذه المرة كما كان يفعل حين يرسل الى الخليفة المعتمد . بل عمل على أن يشهد على ذلك ، ثم رافق تحريرا الى العرش بل انه أرسله الى عمال أماجور والى الشام. وفحص ابن طولون بعد عودة تحرير الرسائل التى صادرها عنده وأوقع بأصحابها أشد العقاب لعلاقتهم بالموفق .

أما الموفق نفسه فالظاهر أنه كان يتوقع أن يرسل ابن طولون اليه مبلغا يفوق ما وصله فغضب من قلة ما أرسله والى مصر ، ومن الطريقة التى عومل بها رسوله ، تحرير ، وكتب الى ابن طولون كتابا شديدا يلومه فيه ويعنفه أشد العنف . بل انه أراد أن يعزله ولكنه لم يجد من يقبل وظيفته لما كان يقدقه على

لبار رجال الدولة من العطايا ، ولما عرف عنه من القوة والسلطان فطلب الموفق الى موسى بن بغا عزل ابن طولون وتولية أماجور على مصر ، ولكن أماجور كان يشعر بضعفه وعدم استطاعته مناضلة ابن طولون فتحنى أماجور ، بل انه لم يبلغ ابن طولون خطاب عزله . ولذلك نرى موسى بن بغا يعقد عزمه على أن يخضع ابن طولون بنفسه بالنظر الى شدة الجاح الموفق .

وفى تلك الأثناء كان ابن طولون يستعد لاتخاذ قرار حاسم بشأن الكتاب العنيف الذي وصله من الموفق . واتخذ أحمد بن طولون قراره وذلك بأن جمع مجلسا حريا من أعوانه ورجال الشرع في البلد وكتب ردا على كتاب الموفق . وظهر في كتاب ابن طولون براعة ومهارة كاتبه ، ابن عبد كان . وحفظ لنا ابن سعيد نص هذا الكتاب نقلا عن ابن الداية ، كما أن المقرئ ترك لنا نصا مختصرا منه في كتابه الخطط . والحق أن ابن طولون كان كريما في معاملة الموفق اذ أنه أرسل المال والخيول والأقمشة للموفق رغم مؤامرات الموفق ضده . نعم ! لقد وقف ابن طولون على مدى الخطر الذي هدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج ، ولكن الموفق لم يحمد لابن طولون هذا الصنيع كما رأينا بل انه عاود الكتابة الى ابن طولون وألح في الطلب وأظهر الجفاء في كتابه لابن طولون وذكر أن الحساب يوجب عليه أضعاف ما سلمه الى تحرير ، وكتب اليه يعنفه ويهدده . وما كان من أحمد بن طولون الا أن رد عليه بكتاب طويل لاذع كما من

بنا . وبرغم تأدب كاتبه فى اختيار العبارات والألفاظ الا أنه بين فضل أحمد بن طولون على الدولة العباسية ، وأنه يعمل على صيانتها والذب عنها ، كما أنه عاتب الموفق على جفائه لابن طولون ، وهو القوى الذى يجتمع عنده الجند والأبطال ، فى الوقت الذى لا يستطيع الموفق عمل شيء ازاء صاحب الزنج . وكان ابن طولون صريحا حين قال فى كتابه : « على أنى لا أعرف السبب الذى يتيح الوحشة ويوقعها ، ولا الأمر الذى يدعو اليها ويوجبها اذ لم يكن بينى وبينه (يعنى الموفق) معاملة توقع مشاجرة أو تحدث منافرة ، وكان العمل الذى أنا بسبيله ليس له ، والمكاتبة فى أموره ليست اليه ، وتقليدى ليس من قبله ولا ولاته ، والأمير جعفر قد قسم الأعمال والعمال ، وصار لكل واحد قسم تفرد له دون صاحبه ، وعمل تجرى عليه أموره دون غيره ، وشرط لكل منهما وعليه فى وقت أخذ البيعة له : من نقض عهده ، وخفر ذمته ولم يف بما أكده على نفسه ، فالأمة بريئة من بيعته ، وفى حل وسعة من خلعه . وكان ما عاملنى به الأمير أيده الله - على ما أنا بسبيله من قبل غيره - من تجهيز الجيوش نجوى ، وأعمال الحيل فى افساد عملى ، ناقضا لشرطه ، ومفسدا لعهدى ... » (١)

وطبيعى أن الموفق غضب من رد ابن طولون أشد الغضب فاضطر الخليفة أن يعزله عن العواصم والشعور ، وسير اليه الجند

(١) انظر ابن سعيد : المغرب ص ٩١ - ٩٢ « نشر الدكتور زكى حسن »

بقيادة موسى بن بغا ، ولكن هذا الجيش وصل الى مدينة الرقة
ثم وقف عندها .

والحق أن خطاب ابن طولون الى الموفق كان بلغة لم نعتدها
من الولاة قبل أصحاب النفوذ في البلاط العباسي . فهي لغة أمير
اطمأن الى قوته واستقل بشئونه . وهو يهاجم الموفق من حيث
أحسن بضعفه اذ كان وضعه القانوني لا يسمح له بالتدخل في
شئون القسم الغربي من بلاد الدولة الاسلامية . ونرى ابن طولون
يحرص على أن يظهر الموفق في صورة الناقض لشروط البيعة .
ولم يكن من المعقول بعد رد ابن طولون على الموفق بمثل هذا
الرد أن يستمر النزاع بينهما مجرد كلام اذ دخل العملاقان في
صراع عنيف ، صراع بين أمير اكتسب حقا له ، وصراع بين صاحب
السلطان الفعلي في الخلافة العباسية . ولم يكن الصراع بين
الاثنين صراعا بين فردين ، وانما كان صراعا بين السلطة المركزية
في الخلافة العباسية التي تحاول ان تفرض سيطرتها على كل الدولة
الاسلامية ، وبين السلطة الاقليمية التي تريد ان تتحرر وتستقل
عن هذه السيطرة .

وكان الموفق هو البادئ ، وكان حريصا على أن يكسب
أعماله صفة قانونية ، ولذا نراه يحصل على موافقة المعتمد احيانا
او موسى بن بغا باعتباره وصيا على جعفر المفوض من ناحية
أخرى .

ولما علم ابن طولون بتقدم جيش موسى بن بغا ضده ، بدأ في تحصين مصر ، ولكن الظاهر انه لم ير الفرصة مناسبة لأن يبدأ بالهجوم ويشق عصا الطاعة . ولعله لم يكن يشعر بأنه من القوة بحيث يجوز له أن يتخذ هذه الخطوة ، أو لعله كان يريد أن يبرر موقفه أمام الشعب ويثبت له أن السلطات في العراق هي التي تقدم على محاربتة . ومع ذلك فانه أخذ يواصل الاستعداد الحربي ولكنه لم ينقطع عن الكتابة الى حكومة العراق رغبة في حسم النزاع . وقد خدمه الحظ مرة أخرى ، فان جند موسى بن بغا ساد بينهم الاضطراب وثاروا يطلبون إعطياتهم المتأخرة . وأحس موسى بقوة خصمه وأدرك أنه لن يستطيع أن ينال منه شيئاً بمثل أولئك الجند الثائرين ، فترك موسى جند الحكومة واعتزل في العراق حيث مات بعد شهرين .

وهكذا فشلت المحاولة الوحيدة لاختضاع ابن طولون ، وعجز الموفق عن اثبات سلطانه في وادي النيل ، فأصبح ابن طولون صاحب الأمر والنهي فيه . وكان ابن طولون قد شيد في جزيرة الروضة حصناً لتأوى اليه أسرته ومعها الثروة والكنوز التي جمعها في حياته ، كما شيد أسطولاً لحماية عاصمته من جهة النيل ولكنه أوقف العمل في كل ذلك عندما علم بتشتت جيش ابن بغا . ولما كانت حروب الزنج قد أنهكت قوى الموفق فقد قعد عن تنفيذ أغراضه في مصر واضطر الى أن يضرب صفحاً عنها .

ولا ريب في أن فشل جند العراق في الوصول الى مصر
واخضاع واليها ، يعتبر فجرا لعصر جديد في حياة ابن طولون
بل وفي تاريخ مصر الاسلامية العربية .

وهكذا نرى أن ابن طولون تغير مركزه كل التغير في مدة
خمس سنوات . فقد جاء مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) نائبا عن
والى مصر أو صاحب اقطاعها بمعنى أدق . وقد تتبعنا خطوة خطوة
تقدم هذا الضابط الكفاء حتى وصل الى مرتبة الامارة التى لم
يستطع أن ينازعه اياها الموفق وهو صاحب السلطان الفعلى في
الخلافة العباسية آنذاك . ولا عجب فقد أصبح لابن طولون
جيش قوى العدد والعدة ، ومالية سليمة محترمة ، فأمكنه بذلك
أن يمنع الحكومة المركزية من أن تملأ ارادتها عليه . أما الحكومة
المركزية فقد زادها ضعفا ثورة الزنج من ناحية ، ومطالب الجند
الترك من خزينة خاوية من ناحية أخرى .

والواقع أن ابن طولون لم يكن ، لولا ثقته بجيشه القوى ،
ليستطيع أن يكتب الى الموفق ذلك الخطاب الذى كان مقدرا أن
يجر الى الحرب ، ومع ذلك فيجدر بنا ألا ننسى أنه خفف الضرائب
برغم كل مشاريعه الاستقلالية .

الفصل السادس
حملة أحمد بن طولون الأولى على الشام
وثورة ابنه العباس

كان فشل قوات الحكومة المركزية في تأديب ابن طولون أكبر مشجع له على زيادة مطامعه الواسعة . وكانت الفرصة مواتية فقد مات موسى بن بغا وكان الموفق مشغولا بحرب الزنج . وأصبح لابن طولون جيش كبير ، ولكن هذا الجيش لم يكن يستطيع أن يبدى نشاطه غربى الديار المصرية لأن بنى الاغلب حكام افريقية (تونس الحالية) كانوا فى أوج عزهم ، وما كان أحمد بن طولون مع ما عرفناه عنه من الفطنة وحسن السياسة ليخطر بالنضال معهم . أما فى الجنوب فكانت بلاد النوبة اقليلما لا يغرى الفاتح الحكيم لأن النوبيين كانوا يعودون الى حمل السلاح والى شق عصا الطاعة كلما غادرت الجيوش الفاتحة بلادهم فكان يصعب على الفاتحين توطيد سلطانهم فيها ، وذلك فضلا عن ضالة هذه البلاد من الوجهة المادية . فلم يبق اذن الا الشام . وتشهد أدوار التاريخ المختلفة منذ العصور القديمة بأن الحكام الأقوياء فى مصر كانوا يتجهون الى الشام لتأمين سلامة وادى النيل ، فمصر والشام تربطهما مصالح تجارية وحرية واحدة . وغالبا ماخضعت مصر والشام فى العصور المختلفة لحكم دولة واحدة لأن كليهما يتمم الآخر فلا يمكن اعتبار الحدود بين القطرين حدا منيعا فاصلا ، كما أن كليهما كان يقع على طريق التجارة العالميه بين الشرق والغرب .

وكانت وفاة اماجور سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) فرصة انتهزها ابن طولون لتحقيق أطماعه . والظاهر أنه كان شديد الحنين الى طرسوس ، حيث أمضى قسما من شبابه ، وكان يتوق الى مد حدوده الى تلك المدينة . وقد مر بنا أن الخليفة المعتمد أضاف الى ابن طولون حكم الثغور الشامية . وأراد أحمد بن طولون أن ينسب عنه أخاه موسى حاكما على طرسوس ولكن موسى رفض هذا المنصب واضطر أحمد بن طولون الى تعيين نائب آخر ، ومع ذلك فيبدو لنا أن سلطان أحمد بن طولون لم يثبت في تلك الأقاليم قبل سيره اليها في حملة حربية ، ولا سيما أنه عزل عن ولايتها على أثر خطابه العنيف الى الموفق فلم يبق له حق قانوني فيها .

ولما توفي اماجور أعطى اقطاعه الى ابنه على . ولكن الحوادث برهنت على أن عليا هذا لم يكن في حكمة والده أو بعد نظره .

ومهما يكن من الأمر فإن أحمد بن طولون اتجه بأنظاره الى الشام ولكنه كان لا يريد أن يبدأ حملته عليها بدون سبب يستند اليه ويبرر به هذه الخطوة الجريئة . ولذا فإنه أعلن رغبته في الجهاد ، وفي حماية حدود الدولة الاسلامية ضد البيزنطيين في آسيا الصغرى . ثم كتب كتاب تعزية الى علي بن اماجور وأبلغه فيه أنه قادم الى بلاده بل طلب منه أن يستعد بالمؤونة اللازمة للجند المصريين . ولم يجد علي بن اماجور واتباعه بدا من الخضوع .

وترك احمد بن طولون على مصر ابنه الأكبر العباس ومعه
الواسطى يساعده بالرأى والمشورة ككاتب ووزير له .

ثم سار احمد بن طولون على رأس جنده الى الشام . وكان
الموفق ، وهو الرجل الوحيد آنئذ الذى يستطيع مقاومة ابن
طولون ، لا يزال مشغولا بحروب الزنج .

وهنا تعترضنا مسألة دقيقة ، هى النظر فى موقف الخليفة
نفسه ازاء هذه الحملة التى أقدم عليها احمد بن طولون . فالمعروف
أن ابن طولون كان يود قبل ذلك اظهار قوته وحسن بلائه وذلك
بقتال الروم ولكن الظاهر أن الموفق كان عقبة كأداء فى سبيل
اجابة طلبه .

وذهب المستشرق ميور Muir الى أن المعتمد كلف
ابن طولون بالقيام بهذه الحملة . ومع أننا نعرف أن علاقة ابن
طولون بالمعتمد كانت طيبة فأننا نستبعد صحة هذا الرأى لأننا
لا نعرف نصا تاريخيا يثبت أن هذا الخليفة عهد الى ابن طولون
بقتال الروم . وعلى كل حال فقد سار ابن طولون بجيشه حتى
وصل مدينة الرملة فى فلسطين حيث قدم اليه حاكمها فروض
الطاعة . ولما كان ابن طولون يريد التحجب وكسب قلوب الحكام
فى الشام فقد ثبت هذا الحاكم ، واسمه محمد بن رافع ، فى
حكمه .

أما فى دمشق فقد استقبله الوالى على بن اماجور ومعه أحمد بن دوغباش الذى كان وصيا على هذا الوالى لصغر سنه . وعندما اقبل أحمد بن طولون ترجل الاثنان عن مطيتهما احتراماً له بل لقد أمرا بالدعاء له فى الصلاة ، معترفين اذن بخضوع اقليمهما له . اما ابن طولون فقد ندب ابن دوغباش لحكم الاقليم . وفضلاً عن ذلك فانه استطاع بشخصيته وسلطانه أن يكسب لجانبه كثيرين من المتطوعين بينهم بعض أعوان اماجور . وكذلك خضعت له حمص وحماء وحلب . ولكنه فى انطاكية اضطر الى استخدام جنده وحصار المدينة بسبب مقاومة « سيما الطويل » حاكم ذلك الاقليم . وكان سيما هذا يحتل انطاكية بجند وافر من الترك فظن أنه من القوة بحيث يستطيع مقاومة ابن طولون ، وخصوصاً ان انطاكية كانت مدينة حصينة سهل الدفاع عنها . وكتب ابن طولون الى سيما يدعوه الى الخضوع ، ويعدده بتبتيته فى ولايته ، ولكن سيما لم يقبل الاتفاق .

ودام الحصار بعض الوقت لقوة أسوار المدينة ، ولكن سكانها سئموا تلك الحالة واجتمع بعض الناقمين منهم على سيما فدلوا ابن طولون على موطن ضعف فى أسوار المدينة . ودخل أحمد بن طولون المدينة فى سنة ٢٦٥ هـ وقتل سيما الطويل ، ودان له أهلها بالطاعة .

وكان طبعياً أن ينتهى المطاف بابن طولون الى طرسوس ، ذلك الثغر الذى أمضى فيه زمناً من شبابه بين العلماء والمجاهدين .

ويذكر ابن الداية أن أحمد بن طولون دخل طرسوس « في خلق كثير وعز منيع » . ولم ينس ابن طولون أصدقاءه القسدامي في طرسوس ، ومما يروى انه اشتاق لزيارة صديق له من الصوفية فذهب اليه ولكن الرجل لم يكن سعيدا بسلطان ابن طولون واعتبر أن طموحه يبعده عن دينه وكان مما قاله لابن طولون « ما الذي أنكرت من ربك حتى شردت عنه هذا التشريد ؟! انك مع تباعدك منه لم تخرج من قبضته ، فارحم نفسك من تحميلها مالا تحتمل .. » (١)

ويذكر الكندي أنه عندما دخل ابن طولون طرسوس في أتباعه وجنده غلا السعر بها ، واضطرب أهلها ، ونابدوه ، فقاتلهم أحمد ابن طولون ولكنه أمر جنده أن يتظاهروا بالتخاذل أمامهم والانهمزام وذلك كي يبلغ امبراطور الروم أن جيوش أحمد بن طولون القوية انهزمت أمام أهل طرسوس (٢) فلا يستخف الامبراطور بهذا الشغل المنيع المواجه للبيزنطيين .

وبلغ تفوذ أحمد بن طولون الغاية فوصلت قواته بقيادة أحمد بن جيغويه حران وما جاورها ، ووصلت قوات أخرى الى الرقة بقيادة لؤلؤ . وتذكر الروايات التاريخية أن أحمد بن طولون

(١) ابن سعيد : المغرب : ص ١١٧ « طبعة الدكتور زكي محمد حسن »

(٢) انظر الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٢٠ « طبعة جست »

كان ينوى الغزو ضد البيزنطيين لولا ما بلغه من ثورة ابنه العباس فعاد الى القطائع فى سنة ٢٦٥ هـ ليقضى على هذه الثورة .

وقد مر بنا أن أحمد بن طولون لما خرج الى بلاد الشام سنة ٢٦٤ هـ استخلف ابنه العباس على مصر وضم اليه كاتبه أحمد بن محمد الواسطى ليكون ناصحا له ومشيرا . وأوصى ابن طولون ابنه العباس باتباع مشورته فقال له : « يابنى ! أحمد بن محمد قد عجم أمرى ، وخبر ما يصلحه فأقبل عليه ، وفوض اليه وتضافرا على حسن الأثر فيما أتما بسيله » . ولكن ما كاد ابن طولون يترك مصر حتى خلت بالعباس بطاقته ، وكانوا يدرسون معه النحو والشعر وما جرى مجراه ، وهم جعفر بن جدار ، وأحمد ابن المؤمل ، ومحمد بن سهل المنتوف . وأراد العباس تعيينهم فى مناصب الدولة الكبرى ولكن الواسطى لم يوافقهم لعدم درايتهم بالسياسة وأساليبها ، وعجزهم عن الاضطلاع بأعباء الحكم ، فحمل هؤلاء الأشخاص على الواسطى وأوغروا صدر العباس عليه فشل يده من أعمال الدولة .

وتذكر الروايات التاريخية أن العباس خلا به قواد كانوا يخافون أحمد بن طولون ويؤثرون الانحراف عنه فحسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطى .

وهنا نقف لتساءل : هل كان للحكومة المركزية فى العراق يد فى ندير رفقاء السوء الذين التفوا حول العباس بن أحمد

ابن طولون والذين كانوا أكبر عامل في ثورته على أبيه ؟ والجواب على ذلك أننا لانتبعد أبدا أن يكون الموفق قد عمد الى هذه الطريقة في خلق الاضطرابات والشغب في حكومة ابن طولون ، وطمع في أن ينال منه بهذه الوسيلة ما لم يستطع أن يناله بالقانون أو بالقوة . ولستأ تنسى في هذه المناسبة أن الجاسوسية أو المخابرات السرية كانت معروفة في تلك العصور وأن ابن طولون كانت له عيون في حكومة العراق ، وكان لحكومة العراق عيون في مصر ، ومن المحتمل أن يكون أعوان الموفق قد انتهزوا فرصة سفر ابن طولون الى الشام وعملوا على أن يتخذوا أصحاب العباس أنصارا لهم ميزينوا لهذا الأمير الثورة على أبيه .

ومهما يكن من الأمر فقد توترت العلاقات بين العباس وأصحابه من ناحية ، وبين الواسطي من ناحية أخرى . وكتب الواسطي الى أحمد بن طولون عدة رسائل يبلغه فيها حقيقة الحال وكان ابن طولون يرد عليها ويطلب الى الواسطي أن يصبر الى حين عودته . ولكن الواسطي كان مكروها عند محبوب بن رجا كاتب ابن طولون في حملته على الشام . فكان محبوب يرسل الى العباس الكتب التي يرسلها الواسطي في الشكوى منه ومن أصحابه . ولذا فقد أصبح الخلاف بين العباس والواسطي علنيا . وفضل الأخير أن يستقر في بيته بعيدا عن الشئون العامة حتى يعود ابن طولون ، ولكن العباس أمر بتفتيش منزله ليعثر على كتب والده ردا على ما كان يرسله الواسطي في الشكوى منه . وأدرك

العباس من لهجة والده فى تلك الكتب أنه كان ناقما عليه ، وألا
سبيل الى اصلاح ذات البين . ولكن العباس نفسه كان ضعيف
الرأى ولم يستطع أن يستقر على شىء لولا أن أصحابه كانوا
يوجسون خيفة من عقاب ابن طولون فحرضوا ابنه على الثورة
العنية والاستقلال بمصر . ونظم ابن جدار كاتب العباس قصيدة
أشاد فيها بشجاعة العباس واستحثه على العمل . وكان العباس
يخشى عودة والده فاستولى من بيت المال على مليونى دينار
واقترض من كبار التجار مائتى الف دينار وكلف أبا أيوب العامل
على الخراج أن يسدها من الضرائب الجديدة . وإذا لاحظنا أن
العباس لم يلق صعوبة تذكر فى أخذ مافى بيت المال وفى الاقتراض
من التجار بضمانة العامل على الخراج رجحنا أن أبا أيوب هذا لم
يكن مخلصا لابن طولون كل الاخلاص بل ربما كانت له يد فى
حركة العباس واتباعه .

وعلى كل حال فقد قبض العباس على الواسطى وأخذه معه
حين سار بجيشه وعسكر عند الجيزة معلنا أنه يسير الى الاسكندرية
لتنفيذ أوامر تلقاها من أبيه . ولكن الحقيقة أنه كبل الواسطى
بالحديد وسار الى الاسكندرية ثم فر بجيشه واتباعه الى برقة
ومعه أسيران : الواسطى ، وشخص آخر من المخلصين لأبيه وهو
أيمن الأسود .

فى ذلك الوقت عاد احمد بن طولون الى مصر ودخل

لفسطاط في رمضان سنة ٢٦٥ هـ . ولم يفقد ابن طواون كل أمل في اصلاح ابنه وأراد على عادته أن يأخذه بالحيلة واللين فأرسل إليه وفدا على رأسه بكار بن قتيبة قاضي مصر وكان الوفد يشمل قاضيا آخر اسمه الصابونى ، وتاجرا من الأعيان يسمى معمى الجوهري ، وخطيبا اشتهر بفصاحته واسمه زياد المعري كما جاء في ابن الداية ، أو زياد المعدنى كما جاء في الكندى وفي البلوى . وحمل زياد الى العباس كتابا من أييه يدعوه فيه الى الرجوع عن خطة فيها هلاكه ، ويعده بالعفو والرضا الأبوى اذا أظهر الندم وعاد الى الفسطاط .

وقد حفظ لنا القلقشندي نص رسالة كتبها ابن عبدكان من ابن طولون الى ابنه العباس « حين عصى عليه بالاسكندرية » . ويذكر المؤرخون ان الوفد الذي ارسله احمد بن طولون الى العباس اجتمع به في برقة وكان كلام زياد المعري مؤثرا بدرجة كبيرة حتى بكى زياد ومن معه من الرسل ودمعت عين العباس وهم بالشخص معهم لولا أن بطائته ، بطانة السوء ، خوفته سوء المصير وخلو به وحملوه على العدول عن رأيه ، فلم يصنع لنصح أييه ونصح رسله ، ورد على أييه ردا قبيحا . وعاد الوفد الذي أرسله احمد بن طولون الى الفسطاط في اول ذى الحجة سنة ٢٦٥ هـ .

أما العباس فانه رأى أن يبعد عن أملاك أييه وسولت له

نفسه الخروج الى افريقية وصغر له أتباعه من شأن ابراهيم بن احمد بن محمد بن الأغلب صاحب افريقية . فكتب العباس الى ابراهيم الأغلبى يخبره أن كتب الخليفة العباسى المعتمد وردت عليه بتقليد افريقية ، ويأمره بالدعاء له بها ، ويخبره أنه سائر اليه وسار العباس متوجها الى افريقية فى سنة ٢٦٦ هـ حتى وصل الى مدينة لبدة فخرج اليه عامل ابن الأغلب وأهلها فتلقوه واكرموه فازداد العباس غرورا فوق غروره واباح المدينة لجنده فنهبوا الحصن وقتلوا الرجال واستباحوا النساء . واستغاثت طائفة من أهل حصن لبدة بالياس بن منصور النفوسى زعيم الخوارج الأباضية ، وكان العباس قد أرسل رسولا الى الياس النفوسى يأمره بالاذعان والطاعة فرد الياس على الرسول قائلا : قل لهذا الغلام : أما انك أقرب الكفار منى ، وأحقهم بمجاهدتى فقد بلغنى من قبيح أفعالك مالا يسعنى التخلف معه عن جهادك ، وأنا على أثر رسالتى اليك . « (١)

وسار الياس بن منصور الى العباس فى اثنى عشر ألف مقاتل كما ان ابراهيم بن الأغلب أرسل الى عامله على طرابلس جيشا آخر من القيروان واطبق الجيشان على العباس فقتل أكثر من كان معه ، واستبيحت أمواله وذخائره وما كان حمله معه من مصر

(١) انظر : ابن سعيد (تقلا من ابن الداية) : المفسر ص ١١١.

(طبعة الدكتور زكى محمد حسن)

من السلاح والخيّل . واستطاع العباس أن يفلت الى برقة بعد أن هزم هزيمة فادحة . وذاع في مصر نبأ مقتل العباس فحزن احمد ابن طولون الأب على مقتل ابنه حزناً لم يستطع اخفائه ، وتبدل هذا الحزن فرحاً وسروراً حين علم بسلامته .

وارسل احمد بن طولون جيشاً لمحاربة العباس في برقة سنة ٢٦٧ هـ ثم عزم على الخروج بنفسه لمحاربته ، وفي تلك الاثناء كان الواسطي قد افلح في الهرب من أسر العباس ولقى احمد بن طولون في الاسكندرية سنة ٢٦٨ هـ متأهباً للخروج الى برقة لتأديب العباس ولكن الواسطي صغر أمر العباس عنده ونصحه بالرجوع الى القسطنطينية . واستجاب احمد بن طولون لنصيحة الواسطي وعاد الى القسطنطينية ، وارسل جيشاً لمحاربة العباس واستطاع الجيش أن يهزم العباس واعوانه في برقة وجرى بالعباس وبطائته الى القسطنطينية في سنة ٢٦٨ هـ . وأمر احمد بن طولون بضرب ابنه ومن أغروه على الخروج والعصيان بالسياط حتى مات بعضهم من الضرب وزج بابنه في السجن .

الفصل السابع
أحمد بن طولون يؤسس إمبراطورية مصرية إسلامية

بلغ أحمد بن طولون أوج عظمته حين تم له النصر في حملته على الشام وأعقب ذلك بالتوفيق في إخضاع ابنه العباس . ولذا فقد بدأ منذ ذلك التاريخ بإضافة اسمه الى اسم الخليفة على السكة . والمعروف أن النقود كانت تضرب في مصر باسم الخليفة وحده حتى سنة ٢٦٦ هـ (٨٧٩ - ٨٨٠ م) ، على أن أحمد ابن طولون لم يصف الى اسم الخليفة اسم الموفق كما كان يفعل سائر الولاة في أنحاء العالم الاسلامي . ولكن اسم الموفق كان يذكر في مصر في خطبة الجمعة بوصفه وليا للعهد بعد المفوض . والمعروف أن أحمد بن طولون لم يحذف اسم الموفق من الخطبة الا سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) وبذلك قضى على كل اعتراف من جهته بالموفق .

ولم يفز أحمد بن طولون بالراحة المنتظرة بعد إخضاع ابنه العباس لأن حادثا جديدا بعث النضال بينه وبين الموفق ، وذلك أن مولاه لؤلؤ الذي عهد اليه بحكم حلب وقنشرين وحمص وديار مصر انضم الى الموفق واعترف بسلطانه وبعث اليه الأموال التي كان عليه أن يرسلها الى سيده أحمد بن طولون .

ولم يتفق المؤرخون على بيان أسباب هذه الخيانة ، ففريق ينسبها الى سياسة الاقتصاد التي اضطر ابن طولون الى اتباعها .

بينما يذهب ابن سعيد - نقلا عن ابن الداية - الى أن لؤلؤ لم يكن راضيا عن تعيينه حاكما في الشام واقصائه عن بلاط الأمير. وكان أحمد بن طولون ينسب خيانة لؤلؤ الى كاتبه محمد بن سليمان ، فان لؤلؤ كان قد استولى على جزء من الجزية الواجب ارسالها الى ابن طولون ثم خشى عقابه ونصحه محمد بن سليمان بالانضمام الى الموفق . ولسنا نظن أن لؤلؤا كان يطمع في أن يصل مع الموفق الى مرتبة أعلى مما ناله عند أحمد بن طولون . فقد كان الأخير قد أطلق يده في الشام حتى كان اسمه يجيء على السكة بعد اسم أحمد بن طولون كما نرى في دينار ضرب سنة ٢٦٨ هـ (٨٨١ - ٨٨٢ م) في الرافقة (١) ومحفوظ في مجموعة دار الكتب المصرية . بينما نعرف في المجموعة نفسها دينارا ضرب في الرافقة أيضا ولكن سنة ٢٧٠ هـ ، أي بعد ثورة لؤلؤ ، فنرى أنه مضروب باسم أحمد بن طولون وحده (٢) .

ويذكر المؤرخ ابن سعيد أن أحمد بن طولون عين صهره محمد بن فتح بن خاقان سنة ٢٦٨ هـ واليا على ديار مصر . ولعل هذا التعيين كان أساسا لسوء التفاهم بين ابن طولون وبين لؤلؤ . وعلى كل حال فان الذي لانشك فيه هو أن محمد بن سليمان

(١) الرافقة بلد متصل البناء بالرقّة وهما على ضفة الفرات . بناها الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ على بناء مدينة بغداد .

Zaky M. Hassan : Les Tulunides p. 79

(٢) انظر :

وما ذكره من مراجع

كاتب لؤلؤ كان له شأن خطير فى خروجه على ابن طولون . وذكر ابن سعيد أن ابن طولون حين عرف بخبر تلك الثورة أمر بمراقبة عبيد الله بن سليمان أخى محمد سالف الذكر . ولا يجدر بنا أن ننسى الآن أن محمد بن سليمان هذا هو الذى سيعود الى مصر على رأس جيش خليفى ليقضى على الدولة الطولونية . وقد ترك لنا بعض المؤرخين قصصا عن بداية حياته فى مصر نقرأها فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، وهى قصص طريفة ولكنها بعيدة عن الصحة .

وصفوة القول انه أصبح كاتب لؤلؤ وان أحمد بن طولون كان لايميل اليه وكان يظنه مسئولا عن الأخطاء التى يرتكبها لؤلؤ .

وعلى أية حال فان خروج لؤلؤ على مولاه أحمد بن طولون كان أكبر حافز لابن طولون على الخروج ثانية الى بلاد الشام . وذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ . وكان ابن طولون يريد أن يلحق بلؤلؤ ويؤدبه على خروجه . ولا نعتقد أن رجوع ابن طولون الى الشام فى هذه المرة كان بقصد توسع جديد ، وانما أراد ابن طولون أن يثبت سيادته فى البلاد التى ضمها الى مصر بعد أن كادت تودى بها خيانة لؤلؤ وانضمامه الى الموفق . كذلك كان الموفق قد قارب الانتصار على الزنج وأصبح من المتوقع أن يواجه أحمد بن طولون بقوته كاملة .

وكان أحمد بن طولون يأمل فى خروجه هذه المرة أيضا أن يجذب الخليفة العباسى المعتمد الى وادى النيل فينقل بذلك كرسى الخلافة الى مصر .

استخلف ابن طولون على مصر تلك المرة ابنه خمارويه وقيل انه أخذ معه ابنه العباس مقيدا . وسار أحمد بن طولون حتى نزل دمشق ، وهناك بلغته الأخبار أن يازمان الخادم تمكن من طرسوس واستمال أهلها وعزل خلف الفرغانى الذى كان قد استخلفه واليها طخشى عند وفاته . فكتب أحمد بن طولون الى خلف الفرغانى يأمره بالقبض على يازمان وبأن يحمله اليه . ولكن أهل طرسوس اتخذوا صف يازمان وولوه عليهم وأخرجوا خلفا من طرسوس . فعول أحمد بن طولون على المسير اليها بنفسه وبينما هو يتأهب لذلك جاءه كتاب من الخليفة المعتمد يعلمه أنه خارج اليه . وكان أحمد بن طولون يترقب ذلك النبأ العظيم الذى كان سيهز العالم الاسلامى هذا لو أنه تحقق . ففى الدوامة المستمرة لكفاح أحمد ابن طولون من أجل استقلال مصر ومن أجل الاحتفاظ بهذا الاستقلال الذى بناه بالدم والعرق ، نراه يطلع على العالم الاسلامى بأمر جديد كان له دوى كبير فى أنحاء الدولة الاسلامية طولا وعرضا . فقد اتخذ ابن طولون لنفسه صفة المدافع عن الخلافة بالسيف والسلاح . فنراه يكتب من مصر فى سنة ٢٦٨ هـ الى الخليفة المعتمد كتابا جاء فيه : « قد منعنى الطعام والشراب والنوم خوفا على أمير المؤمنين أطل الله بقاءه من مكروه يلحقه ، وأصبحنا

بأصحاب أمير المؤمنين فى رده ومقارعه ، فحنت الأيمان المؤكدة
له فى أعناقنا ، وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان ، مؤلفة قلوبهم ،
مجتمعة آراؤهم ، شديد بأسهم ، وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين
— أدام الله عزه بالنصر والتمكين — الانجذاب الى مصر ، فان
أمره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ولا يمكن فيه ما يخافه فى
كل لحظة منه عليه « (١) .

وواضح مما رواه ابن الداية فى سيرة أحمد بن طولون ، ان
أمير مصر لم يفكر فى هذه الخطوة الجريئة الا بعد ان علم بخلع
لؤلؤ وانحيازهم الى الموفق . ولم يكن من السهل على ابن طولون
أن يرى كفاح السنين المتواصل ينهار أمام عينيه ولذلك نراه
يضرب ضربة جريئة عليها تكون قاضية على الموفق والأعبيه ، وفى
الوقت نفسه تحفظ له ملك مصر وتفوزه فى الشام بل تعطى مصر
حق زعامة العالم الاسلامى حينئذ .

ويذكر ابن الداية أن كتاب ابن طولون صادف هوى فى نفس
ال خليفة وأنه أظهر الخروج الى مصر . وقد رأى الخليفة أن خروجه
فيه خلاص من تضيق الموفق وفرار مما يناله من امتهان ، وفيه
ما يرضى حاجته الى المال ويضفى عليه الأمن والطمأنينة فى ظل
أمير مصر القوى . وفى الوقت نفسه كان ابن طولون يريد أن يجرّد

(١) ابن سعيد : المغرب : ص ١٢٦ - ١٢٧ (طبعة الدكتور زكى محمد حسن)

الموفق من السند الشرعى الذى يستند اليه اذ كان الموفق يجبر الخليفة على الأمر بما يريد .

ولم يكن من المعقول ان يبقى احمد بن طولون فى مصر منتظرا ما تجيء به الاحداث لذلك نراه يخرج الى الشام كما ذكرنا فى سنة ٢٦٩ هـ . وبينما كان فى دمشق أتاه كتاب الخليفة المعتمد بأنه سائر اليه . وتظاهر الخليفة بأنه خارج للصيد وكان الموفق لا يزال يحارب صاحب الزنج . واتجه الخليفة صوب الرقة ولكن عيون الموفق أبلغوه الخبر فأرسل الموفق الى اسحق بن كنداج يأمره باللاحاق بالخليفة لرده ويعده بالاموال والاقطاعات . وفعلوا لحق اسحق بن كنداج بالخليفة عند الحديثة قبل أن يخرج من حدود العراق وهناك أقنع اسحق الخليفة بأن ما عزم عليه هو الخطأ ، وذلك بعد ان قيد أتباعه الذين خرجوا معه وكان من بينهم ابراهيم ابن مدبر . وعاد الخليفة الى سامرا شبه سجين فى شعبان سنة ٢٦٩ هـ وعقد بعدها الموفق لاسحق بن كنداج على مصر . ولا أدل على هلع الموفق واضطرابه حينئذ مما قاله حين أرسل اسحق بن كنداج للحاق بالخليفة « اذا تم هذا الأمر استولى احمد بن طولون على أمره فلم يكن لكم ، ولا لأحد منكم مقدار ... فيكون ذلك سببا فى زوال دولة بنى العباس » (١) .

أما ابن طولون فانه كان قد رتب الأمور على أن تتم محاولة الخليفة فى أثناء وجوده فى بلاد الشام حتى يستطيع أن يكفل

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٤٦٠

للخليفة الحماية المنشودة ، وسأز هو من دمشق لملاقاته ولكنه حين علم بأحباط محاولته عاد ثانية الى دمشق .

ولم يكن من المعقول بعد ذلك أن يقف أحمد بن طولون مكتوف اليدين وذلك بعد أن اتسعت املاكه الى أبعد الحدود ولم تنل منه قوات الموفق ولم تعد في بغداد قوة تستطيع أن تقف في وجهه . لم يكن من المعقول أن يرضخ للموفق وان يستسلم لقراره بتولية ابن كنداج مصر . ولا يعقل أن يكون هذا القرار أكثر من حبر على ورق . فابن طولون لم يصبح مجرد وال على ولاية عباسية ، وانما اذا جاز لنا أن نستعير اللفظ ، فقد كان امبراطورا على امبراطورية واسعة امتدت الى حدود العراق . في الشرق وجبال طوروس في الشمال وطرابلس في الغرب . وأصبحت مصر الاسلامية حصن الاسلام وخط دفاعه الأول .

كان قرار الموفق بتولية اسحق بن كنداج على مصر بدلا من ابن طولون شبيها بقرار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يعزل معاوية عن الشام وهو اذ ذاك ملك غير متوج عليها . ولهذا نرى أحمد بن طولون يتصرف حينئذ تصرفا لا يدهشنا ، فنراه يعقد مؤتمرا في دمشق ويأمر عامله بأن يدعو القضاة والفقهاء والأشراف من كافة أنحاء امبراطوريته لأن أيا أحمد الموفق نكت بيعة المعتمد

وأُسره . وخرج من مصر الى دمشق فيمن خرج القاضي بكار بن قتيبة ، وخطب الخطيب في مصر يوم الجمعة فذكر ما نال المعتمد وزاد في خطبته « اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه » (١) .

وحينما اكتمل الاجتماع في دمشق في ذي القعدة سنة ٢٦٩هـ أمر أحمد بن طولون بكتاب خلع فيه ابا أحمد الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وأُسره له ، وكتب في هذا الكتاب : « ان ابا أحمد خلع الطاعة وبرىء من الذمة ، فوجب جهاده على الأمة » (٢) وشهد على ذلك جميع من حضر الا بكار بن قتيبة ومحمد بن ابراهيم الاسكندراني وفهد بن موسى . وتعلل بكار بقوله : « لم يصح عندي ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه » .

ولم يكتف ابن طولون بذلك بل جرد حدائقه المشهورة على الحجاز ليسنع من أن يدعى للموفق على منابر مكة (٣) .
وحين بلغ الموفق ما فعله ابن طولون كتب الى عماله يأمرهم بلعن ابن طولون على المنابر فلعن فيها وكان مما يلعن به : « اللهم العنه لعنا بقل حده ، ويتعن جده ، واجعله مثلاً للغابرين ، انك لاتصالح عمل المفسدين » .

وهكذا نرى الموفق ، بعد ان استنفد كل وسائل العداء نحو أحمد بن طولون وبعد أن انهكت حرب الزنج قوته ، لا يستطيع

(١) الكندي : الولاة والقضاة . ص ٢٦٦

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٦

(٣) البلوي : سيرة ابن طولون ص ٢٦٨

أن يرد على ابن طولون إلا باللعن على المناير . وكان الموفق أول
الطرفين ميلا للتفاهم واقارارا للسلام فلم يكن قادرا على عدوان
جديد . وخير دليل على ذلك أنه حين حرضه لؤلؤ غلام ابن طولون
على الحرب لم يستجب (١) . وبدأ الموفق يتصل بابن طولون ،
فأرسل اليه يعاتبه على المبادرة بخلع واسقاط اسمه ويعتذر له
على ما كان من لعنه على مناير بغداد . ولم يكن من أحمد بن طولون
بعد أن تأكد من صدق رغبة الموفق ، إلا أن جنح إلى المسالمة
واعتذر اليه .

وطرب الموفق لاستجابة ابن طولون ، واطلق الخليفة من
منجسه وبادر بتكريم الخليفة . وكتب الخليفة لابن طولون يسأله
رد الدعوة واتفذ اليه اسقاط اللعن عنه .

ولم ينس ابن طولون وسط هذه الأحداث أن يعنى بمنطقة
الشعور عنايته بسائر بلاد الشام . ومر بنا أنه كان عازما على السير
إلى طرسوس حين ورد عليه كتاب الخليفة بالسير اليه . ولما فرغ
ابن طولون من مؤتمر دمشق وما كان فيه ، سار نحو طرسوس ولما
وصل إلى المصيصة أرسل إلى يازمان الخادم يدعوه إلى طاعته
والدعاء له فلم يستجب يازمان .. فزحف أحمد بن طولون إلى اذنة
ثم إلى طرسوس فوجد يازمان قد تحصن بها ونصب المجانيق على
سورها . وكان الوقت شتاء والجو باردا والمطر والثلج كثيرا ،

(١) الأولى : سيرة ابن طولون ص ٤٠٤

وارسل يازمان الماء على عسكر أحمد بن طولون من نهر البردان
ففرق عسكره واضطر ابن طولون أن يرجع الى اذنة . ثم رحل
ابن طولون من اذنة الى المضيفة وهناك مرض مرضه الذي أدى
الى وفاته . وحين اشتدت وطأة المرض على ابن طولون أسرع
بالعودة الى مصر فوصل القسطنطينية في جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ هـ .
ولم يقف مرضه حائلا دون متابعة الاشراف على امبراطوريته فأشيع
حينئذ أن اسحق بن كنداج وابن أبى الساج لما علما بمرضه طمعا
فى أملاكه ، فكتب الى قواد جيشه ببلاد الشام يطلب منهم توحيد
الكلمة لمواجهة العدوان المرتقب . بل انه انفذ الى الشام جيشا فيه
خاقان ويليق وأقام فى مضاربه فى منية الاصبغ (١) نحو ستة
أشهر يتابع الحال حتى وافته الأنباء بزوال الخطر .

وهكذا نرى أن أحمد بن طولون استتمت فى الدفاع عن
حقوق اكتسبها حتى آخر رمق فى حياته فقد وافته المنية ليلة الأحد
لعشر خلون من ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ بعد أن حكم مصر ستة
عشر عاما .

(١) كانت اقطاعا من الخليفة عمر بن الخطاب الى الصحابي ابن مسعود وبعد
وفاة ابن مسعود اشتراها من ورثته الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان « أما موقعها
فكان شمالي القسطنطينية بالقرب من ضاحية الدمرداش الحالية » انظر : سيدة
كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ٥٣ .

الفصل الثامن

علاقات مصر الخارجية في عهد أحمد بن طولون

١ - أحمد بن طولون والخلافة العباسية :

كان تاريخ أحمد بن طولون وتاريخ أسرته من بعده ليس في الحقيقة إلا صراعا بينهم وبين الخلافة العباسية أو الحاكمين باسم الخليفة . وإذا عرضنا لمسألة التقليد والحق الشرعي بالنسبة لأحمد بن طولون نرى أن الخليفة لم يعينه قط حاكما عاما على مصر . فقد ذكرنا أنه قدم إليها نائبا عن واليها باكباك (زوج أمه) وظل فيها بعد وفاة باكباك واقطاع مصر ليارجوخ حميه . وبعد وفاة الأخير تعقدت الأمور ولم يشأ ابن طولون أن يترك حكم مصر واستغل لمصلحته الخلاف بين المعتز والموفق واستطاع إعطاياه وهداياه أن يجعل حكومة العراق تتركه مؤقتا حتى تحين الفرصة للتخلص منه . ثم اعترف به الخليفة نائبا عن ابنه جعفر الذي كانت مصر من نصيبه في الاقطاع ، وأضاف اليه فضلا عن ذلك ولاية الخراج وحكم العواصم . ولما لم يرسل أحمد بن طولون الى الموفق المبلغ الذي كان ينتظره بل بعث اليه بكتابه المشهور اراد الموفق أن يولي على مصر أماجور بالاتفاق مع موسى ابن بغا الوصي على اقطاع جعفر المفوض . وقامت حملة الى مصر بقيادة موسى بن بغا ولكنها توقفت عند الرقة وأصبح أحمد بن طولون بذلك السيد الفعلي لوادي النيل .

والملاحظ أن أحمد بن طولون ظل دائما معترفا بالخليفة العباسي المعتمد ، وربما كان ذلك لأن المعتمد لم يكن فى يده من السلطان شىء . بل ان أحمد بن طولون أراد أن يظهر بمظهر المدافع عن المعتمد ضد أخيه الموفق . وهذه مسألة هامة فان أحمد بن طولون كان فى أكثر الأحيان أقوى من الخليفة نفسه ولكنه كان يحرص على ارضائه لأن الخليفة كان لا يزال متمتعا بنفوذه الدينى .

والواقع أنه حتى القرن الرابع الهجرى « العاشر الميلادى » حين انقسم العالم الاسلامى الى دول صغيرة منفصلة لم تفقد الخلافة معناها . وكان اعتراف الخليفة العباسى لا يزال له شأنه عند العامة والخاصة ، اذ انه بالرغم من ضعف الخليفة فى بغداد الا أن سيادة الخليفة على الممالك والدول الاسلامية ظلت ماثلة فى الأذهان ولم يفقد معنى الخلافة حتى ذلك الحين ما كان له من القوة والسلطان .

وقد رأينا كيف أراد أحمد بن طولون أن يجعل مصر مركزا للخلافة العباسية ولكن مشروعه باء بالفشل .

وقد وضحت نية أحمد بن طولون فى توريث ملكه لاولاده من بعده ، فنراه يستخلف ابنه الأكبر العباس على مصر حين خرج الى الشام والثغور فى سنة ٢٦٤ هـ .

وقبل أن يسير أحمد بن طولون الى الشام فى سنة ٢٦٩ هـ ، وحين وردت اليه موافقة الخليفة العباسى على السير الى مصر ،

فراه يستخلف خمارويه على مصر ويترك معه جماعة من شيوخ القواد لمشاركته الحكم .

غير أن رغبة ابن طولون في توريث ملكه وضحت تماما حين عاد من بلاد الشام مريضا محمولا اذ أحس باقتراب منيته ولذا فراه يبائع ابنه أبا الجيش خمارويه بولاية الأمر من بعده . ولم يكن ينقص ذلك الأمر الا أن يستوفى الشكل وأن توافق الخلافة العباسية على مبدأ التوريث . وكانت مبادئ التفاهم بين الموفق وبين أحمد بن طولون تمهد لقرار الأمر الواقع لولا أن المنية عاجلت أحمد بن طولون قبل أن يستكمل الناحية الشكلية في استقلاله بالملك وتوريثه لأبنائه من بعده .

٢ - أحمد بن طولون والدولة البيزنطية

لم تترك لنا المصادر التاريخية بيانات كافية عن علاقة بني طولون بالروم . ولكن المعروف أن أحمد بن طولون اتصل بممثلي الامبراطور باسيليوس الأول عندما غزا الأول الشام . وبيان ذلك أن الامبراطور المذكور كان قد استعاد من المسلمين حصن لؤلؤة سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) وقلق الخليفة لضياح هذا الحصن وغيره من الثغور ، فطلب من أحمد بن طولون أن يطرد الروم وعينه حاكما على العواصم . ولكن أمير مصر كان مشغولا بتوطيد سلطانه فيها فلم يستطع أن يتفرغ لهذه المهمة التي كانت في الواقع مما يهم الخلافة نفسها . ولذا فقد استطاع الروم أن يواصلوا بنجاح حملاتهم في آسيا الصغرى .

وفى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨م) سار أحمد بن طولون بجيشه الى الشام . وأكبر الظن أنه استطاع أن يتصل بالروم على الحدود اتصالا وديا ، ولعلمهم رحبوا بذلك عندما وجدوه سياسيا بعيدا عن التعصب الأعمى . وأطلق الروم — عربونا لهذه الصداقة — سراح عبد الله بن راشد بن كاوس ، الذى كان عامل الثغصور وأسره الروم ، كما أطلقوا معه سراح عدد كبير من الأسرى ، ولعل ذلك كان من قبيل تبادل الأسرى بين الروم والمسلمين مما كان يحدث كثيرا ولاسيما فى طرسوس ويعرف باسم « الفداء » عند المسلمين .

وقد روى المؤرخ العيني أن الامبراطور أهدى الى أحمد بن طولون فى هذه المناسبة بضعة مصاحف كريمة مخطوطة . وكان الروم فى العام السابق قد طلبوا من أحمد بن طولون عقد هدنة فأجابهم الى ذلك ، واتتهز هذه الفرصة كى يصلح الحصون الاسلامية فى الثغور . ومن الطريف أنه كتب الى طخشى عاماه على طرسوس يأمره بتوزيع المال والطعام على المحاربين الفقراء الذين اتخذوا الجهاد ضد الروم حرفة والذين كانوا يخسرون بهذه الهدنة كل ما اعتادوا الحصول عليه من الغنائم .

وجاء بعد طخشى فى حكم طرسوس ، خلف الفرغانى ، الذى واصل الغارات على الروم وجاء فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بين حوادث سنة ٢٦٨ هـ : « وفيها غزا خلف الفرغانى

التركي نائب أحمد بن طولون تغور الشام ، فقتل من الروم بضعة عشر ألفا ، وغنم حتى بلغ السهم أربعين دينارا . ولكن جاء في المصادر اليونانية أن الروم هزموا المسلمين في البحر ، ومن الطريف أنهم أشاروا الى جاسوس أرسله المسلمون الى القسطنطينية ليوقف على حقيقة قوة الروم .

والمعروف أن يازمان استولى على حكم طرسوس قبيل وفاة أحمد بن طولون . وكان يازمان هذا قد اشتهر في الجهاد ضد الروم . واستمرت في عهده الغزوات السنوية ضد الروم . وكان أسطول المسلمين يغزو الجزائر اليونانية في بحر الأرخبيل وينقض على موانئ آسيا الصغرى . وكان يازمان هو صاحب اليد الطولى في هذه الغزوات وليس خمارويه بن أحمد بن طولون وخليفته في حكم مصر .

وقد مر بنا كيف خلع يازمان طاعة أحمد بن طولون ومات ابن طولون قبل أن يتم نصره عليه . ولم يعترف يازمان بسلطان خمارويه قبل سنة ٢٧٤ هـ (٨٨٨ م) .

٣ - أحمد بن طولون وبلاد النوبة :

لم يتحدث المؤرخون العرب عن علاقة بنى طولون ببلاد النوبة اللهم الا في مناسبة الكلام عن العمرى الذى دخل تلك البلاد وقاتل أهلها مدة طويلة قبل أن يضطروه الى التقهقر الى أسوان حيث دار القتال بينه وبين الجيش الطولونى كما مر بنا .

٤ - أحمد بن طولون وبنى الأغلب :

كانت مصر مركزا هاما بين بلاد الشرق الاسلامى ، وبين افريقية وبلاد المغرب ، فكانت طريقا للحجاج والرحالة والعلماء والتجار . وكان يجاور مصر فى العصر الطولونى من الغرب فى افريقية (تونس الحالية) دولة الأغالبة . وكان ابراهيم الثانى الأغلبى يحكم افريقية (٢٦١ - ٢٨٩ هـ - ٨٧٤ - ٩٠٢ م) منذ وطد أحمد بن طولون سلطانه فى مصر الى السنين الأخيرة التى إضعفت فيها الدولة الطولونية وآذن نجمها بالأفوال .

وكانت دولة الاغالبة تخضع للعباسيين خضوعا اسميا ، على غرار الدويلات التى استقلت عن الخلافة آنئذ . ولا نعرف ان أحمد بن طولون فكر فى الاعتداء على دولة الأغالبة ، اذ انه كان مشغولا بتوطيد سلطانه فى مصر ، وبتصفية علاقته مع الخلافة العباسية ، وبتوسع سلطانه فى الشرق ولا ريب فى أن المستشرق الانجليزى وليم ميور Muir لم يكن دقيقا حين ذكر فى كتابه « الخلافة » ان أحمد بن طولون حارب ابراهيم الأغلبى حاكم القيروان الذى حاز انتصارات باهرة فى صقلية ثم اتجهت مطامعه الى الشرق .

فالواقع أن أحمد بن طولون كان مقتنعا بقوة الأغالبة ولم يرد قتالهم . وكل ما حدث بينهم وبين أحمد بن طولون كان على يد العباس الذى ثار على والده ثم فر الى برقة وافريقية وقد مر بنا

الحديث عن ذلك . والطريف أن المستشرق الفرنسي فوق درهيدنا
الذى كتب تاريخ بنى الأغلب بالغ كثيرا جدا فى تقدير الغنائم التى
حصل عليها الأغالبة عندما هزموا العباس حتى لقد كتب أن جزءا
من ثروة وادى النيل انتقل الى افريقية مما يفسر ما نعرفه من غنى
الأمراء الأغالبة فى نهاية دولتهم . والحق انه اذا كان ماغنموه من
العباس اثر عليهم الى هذا الحد فلا بد انهم كانوا قبل ذلك فقراء
جدا .

وكتب مؤرخو افريقية أن الأمير الأغلبى ابراهيم الثانى فكر
بعد هزيمة العباس بست عشرة سنة فى مهاجمة مصر واعد لهذا
الغرض حملة ، ولكننا لا نرى أى ذكر لهذا المشروع فى كتب
التاريخ المصرية الاسلامية والظاهر ان الحملة المذكورة لم تكن
معدة لفتح مصر ، ولا سيما اذا تذكرنا أن الأغالبة لم يكونوا
ليستطيعوا ان يبقوا مصر لأنفسهم بعد فتحها ، ولم يكونوا
ليتكلفوا مشقة فتحها لتقديمها الى الحكومة العراقية .

وذكر المؤرخ الأندلسى ابن الأبار ان ابراهيم الثانى تظاهر
بالقيام بالحملة على مصر ليستطيع أن يسير على رأس جيشه ويمس
بمدينة طرابلس حتى يتسنى له أن يقتل حاكمها وقد كان من ألد
أعدائه . ومهما يكن من الأمر فان ابراهيم الثانى اعتزل العرش
سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢ م) . وكان قد أراد قبل ذلك أن يؤدى
فريضة الحج ثم عدل عن هذا المشروع مدعيا أن مروره بالأراضى

المصرية قد يكون سببا للمقتال بين بنى طولون وبنى الأغلب .
ولكن الواقع أن هذه الدعوى لم تكن صحيحة وإن إبراهيم كان
يعرف أن أمير الدولة الطولونية التي كانت تحتضر حينئذ لم يكن
ليشغل نفسه بمنع أمير مسلم من المرور لأداء فريضة الحج .
وأكبر الظن أن إبراهيم نفسه لم يكن يريد الذهاب إلى الحجاز
كي لا يضطر إلى مواجهة الخليفة بعد أن بعث إليه أهل إفريقية
بظلمات يرجون فيها عزل هذا الأمير لسوء سيرته وعسفه فيهم .
والمعروف على كل حال أن إبراهيم اعتزل الحكم وذهب إلى
صقلية حيث ترأس حملة كانت تجاهد ضد البيزنطيين .

الفصل التاسع
جيش مصر في عهد أحمد بن طولون

شرع ابن طولون منذ البداية فى اعلاء شأنه باستقلال يكاد يكون تاما ، وبرحاء تنعم به البلاد فى عصره . واعتمد فى سبيل تحقيق هذا الغرض على جيشه العظيم . أجل ! . فلا يفوتنا انه هو الذى خلق هذا الجيش الذى كان أحسن عدة له ولابنه من بعده ، وان هذا الجيش كان على عكس سائر الجيوش الاسلامية ، وافر العدد والنظام وقائما حتى فى زمن السلم . ولم يفقد هذه المزايا الا بعد مقتل خمارويه بن أحمد بن طولون .

وكانت مهمة انشاء هذا الجيش سهلة على أحمد بن طولون ، ولم تصادفه الصعوبات التى لقيها بنو الأغلب من وجود جيش عربى يعارض فى التجديد وفى ضم العناصر الغريبة . ولا غرابة فان أحمد بن طولون لم يجند جندا من العرب عندما قدم الى مصر . والمعروف ان الجند الترك والمرتزة من الأجانب كانوا قد خلفوا العرب فى الجندية منذ أمر المعتصم بشطب العرب من ديوان الجيش سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) ، وتنتج عن ذلك امتزاج العرب بسائر طبقات الشعب فى مصر ففقدوا صفاتهم الحربية البحتة . والواقع أن أولئك الجند العرب كانوا مع شجاعتهم بعيدين عن النظام الى حد ما وكانوا يذكرون منازعاتهم ومنافساتهم القبلية ويتوقون الى الحرية وكان ذلك يضايق الأمراء الى أكبر درجة .

ومر بنا أن أحمد بن طولون اصطحب عددا من الجند حين قدومه الى مصر . ولكن ثورة ابن الشيخ والى الشام هى التى

مكنته بمساعدة الخليفة وموافقة من انشاء جيش كبير : وأصبح
لمصر لأول مرة جيش عظيم مستقل عن الخلافة . وخدمت الظروف
أحمد بن طولون عندما عدل الخليفة عن رأيه الأول فلم يفقد
الجيش الطولوني شيئاً في قتال ابن الشيخ ، بل أعفى من هذه
المهمة وتولتها جيوش عراقية أرسلها الخليفة . وكان ذلك غلطة
كبيرة من حكومة العراق بقدر ما كان مكسباً كبيراً لمصر .

وذكر المقرئ أن أحمد بن طولون اشترى عبيداً من الروم
والسودان لانشاء هذا الجيش . وذكر في موضع آخر أن جيش
أحمد بن طولون بلغ ٢٤ ألف مملوك من الترك و ٤٠ ألفاً من
السود وسبعة آلاف حر مرتزق . وذكر المؤرخ ابن إياس نقلاً عن
ابن وصيف شاه أن الأربعة وعشرين ألف مملوك كانوا من بلاد
الديلم وأن سبعة الآلاف كانوا من العرب . ولكن هذين المؤرخين
لا يمكن الركون إليهما في أخبار هذا العصر . وقد يكون في
الجيش الطولوني جنود مرتزقة من العرب ولكننا لا نظن أن عددهم
كان كبيراً أو أن شأنهم كان خطيراً .

أما ابن سعيد فقد ترك لنا نصاً يظهر أنه غير كامل ، ففيه أن
أحمد بن طولون خلف عند وفاته سبعة آلاف مولى وأربعة
وعشرين ألف عبد . ولسنا نعرف هل المقصود بهؤلاء أنهم خدم
أخصاصيون للأمير ولا علاقة لهم بالجيش ، أو أنهم من الجنود
وأن النص غير كامل فلا ذكر فيه للجنود السودان ، وهنا يحق لنا

أن تتساءل كيف أصبح السبعة آلاف حر مرتزق في رأي المقرئ ، موالى عند ابن الداية أو ابن سعيد . ولعل هؤلاء السبعة آلاف كانوا من أبناء مصر ، وإن كلمة موالى كانت تعنى أبناء البلاد الإسلامية التي سيطر عليها العرب منذ القرن الأول الهجري . وفضلا عن ذلك فقد قدر الجيش الطولوني بمائة ألف جندي في أربع مناسبات معروفة ، الأولى الإشارة الى هذا العدد في كتاب أحمد بن طولون الى الموفق ، والثانية إشارة التجار العراقيين عند رغبتهم في إرهاب عظماء سامرا وكبار رجال البلاط كي لا يقبلوا منصب والي مصر ، والثالثة إشارة أحمد بن طولون في كتابه الى المعتمد عارضا عليه حماية مثل هذا العدد من الرجال وانقاذه من استبداد الموفق ، والرابعة ما ذكره الكندي من أن جنود أحمد بن طولون كان عددها مائة ألف حين سار لاختصاص ابنه العباس .

وأكبر الظن أن في هذه الأرقام بعض المبالغة . وفي رأينا أننا لا نكون بعيدين عن الصواب إذا قدرنا الجيوش الطولونية في أوج عزها بنحو خمسين ألف جندي . ولسنا نعرف ، لسوء الحظ ، من النصوص التاريخية ما نستطيع بوساطته البحث في نظام هذا الجيش وعدده وغير ذلك مما يعنى به المؤرخون المحدثون بعد أن كان يهمله المؤرخون المسلمون الى حد كبير .

وحسبنا أن نذكر أن الجند من الممالك الروم كان لهم في القطائع حى قائم بذاته . وأن الجيش كان فيه عدد كبير من عبيد

بني طولون ولكننا فرجح أن الأغلبية فيه كانت من المماليك
المعتقين أو الجنود المرتزقة ، وإن بعضهم كان سودانيا ، وبعضهم
من أصل رومي أو تركي . وأكبر الظن أنهم كانوا كلهم يتسلمون
أجورا وأعطيات ، وإن المقرئ لم ينص على أن بعضهم كان
« حرا مرتزقا » إلا لأن هذا البعض كان من العرب ، وربما كانت
مرتباتهم أعلى من مرتبات سائر الجند . ولسنا نعتقد أن فريقا من
الجند لم يكن له مرتبات اللهم إلا إذا كان من عبيد الأمير
الخصوصيين ، وحتى هؤلاء كانوا يكافئون بطريقة ما . ولسنا
نستطيع أن نكتب شيئا عن قيمة المرتبات التي كانت تدفع للجند
ولكننا نظن بوجه عام أن أحمد بن طولون كان يعنى بارتضاء
جنده من هذه الناحية أشد الرضاء ، بينما كان خصومه ضعفاء
في هذه الناحية ، فلم نسمع عن جنده أى ثورة أو فتن ، بينما رأينا
جيش ابن بغا لم يستطع التقدم بعد الرقة بسبب الثورة التي قام
بها جنده الذين لم يتسلموا مرتباتهم .

وقد كتب المؤرخ اليعقوبى أن كل الجنود الطولونية أقسمت
بيمين الطاعة لأحمد بن طولون في سنة ٢٥٨ هـ (٨٧٢ م) .

والظاهر أن حفظ النظام بين هذه الجنود كان أمرا شاقا ، ولم
يقتسر لأحمد بن طولون الوصول إليه بسهولة ، بل أنه لم يصل
إليه إلا بفضل صفاته الشخصية وحزمه وكرمه وبعد نظره . ولا
غربة فقد كان هذا الجيش مكونا من عناصر متعددة كانت تنسى
عصبيتها الجنسية أمام حزم أحمد بن طولون .

أما قواد الجيش فلم يكن بينهم أحد من أقارب أحمد بن طولون نفسه إذ كان أبناؤه صغاراً ولما كبر العباس كان مصدر شقاء لأبيه . بينما لم يكن موسى بن طولون قائداً أو ادارياً يستطيع أخوه أحمد أن يعتمد عليه فضلاً عن أن العلاقات بينهما توترت بعد مجيء أحمد إلى مصر بوقت قصير . فلم يبق لقيادة الجيش إلا القواد من الجند الترك . وقد كان في هؤلاء القواد نقطة ضعف خطيرة هي أنهم لم يعتقدوا بحق شرعي مقدس لبنى طولون في الحكم ، فقد كان أحمد مواطناً لهم بدأ حياته كواحد منهم ، ولم يكن لأسرته حق شرعي أو ماض مجيد . ولكن مؤسس الأسرة الطولونية في مصر استطاع ، بسواهبه وهباته وشدته عند اللزوم ، أن يخفف من أضرار مثل هذه الحالة ، وأن يمنع القواد من القضاء على سلطانه .

ومن أمثلة الأساليب التي اتبعها أحمد بن طولون في معاملة قواده ما ذكره الكندي من أنه بعث إلى قائده بهم بعد انتصاره على ابن الصوفي « بخلع وطوق من ذهب » .

ولما فتح أحمد بن طولون الشام انضم إلى جيشه جنود تلك الأقاليم ولكن أحمد بن طولون لم يستطع أن يكون بجانبهم دائماً ، ولم يمكنه أن يعودهم على نظام جيشه في مصر . وقد ظلت هذه الجنود الشامية أقل تعلقاً بشخص أحمد بن طولون من تعلقها بحكام الأقاليم في الشام وخير مثال على صحة ذلك ثورة لؤلؤ . فضلاً عن أن نجاح العباس في الثورة والفرار بالجند

الذين كان أبوه تركهم في مصر يدل على ضعف العلاقة بين الجند وقائدهم الأعلى .

والحق ان المسألة المالية كانت تفوق كل شيء في علاقة أمراء بنى طولون بجيشهم . وكان مركز احمد بن طولون قويا في جيشه ، واستطاع أن يعتمد عليه وأن ينتظر منه الخدمات الجليلة ، وذلك لأن أحمد بن طولون كان لديه من الأموال ما استطاع بوساطتها أن يدفع مرتبات الجند في نظام ، ولأنه كان شديد القسوة عند اللزوم ، ووافر الكرم في بعض الأحيان ، ويعرف كيف يستطيع القضاء على كل حركة تدمر في مهبها . ولا يفوتنا أن حروبه المتصلة في الشام والثغور وضد الثورات الداخلية كانت تجعل القواد والجند أمام أغراض يجب الوصول اليها ، وأعداء يجب التغلب عليهم فكان لا بد لهم من نظام يسهل لهم هذه المهمات .

وكان احمد بن طولون كثيرا ما يستعرض الجيش في مناسبات الحفلات والأعياد وأيام الجمع فيقف الشعب على الجانبين معجبا بجلال أجسامهم وحسن ملابسهم وجميل نظامهم ، ولا ريب أن هذا كان عاملا قويا في حفظ النظام في داخل البلاد وسيادة الرخاء .

وفي عصر جيش بن خمارويه انقلب الحال وظهر أن نظام الجيش الطولوني لم يقيم على أسس قوية بل كان احمد بن طولون وخمارويه يكادان يشتريان احترام الجند وطاعتهم بالهبات

والعطايا ، فلما ترك خمارويه الخزانة خالية ، ولم يستطع جيش ابن خمارويه أن ينسج على منوال جنده وأبيه رفض قسم من الجيش الاعتراف به ، ولم يلبث الجيش القديم أن أصبح فرقا من الجند فقدت نظامها وسادتها الفوضى ثم انتهى الأمر بفرار بعض القواد الى العراق . ولم يكن لجيش بن خمارويه من الحزم أو الشخصية ما كان لجده فزاد الطين بلة وأصبح الجند من أكبر أسباب الفوضى في الدولة بعد أن قام على أكتافهم مجدها في عهد جده وأبيه .

ولم يكن قتل جيش بن خمارويه سببا في اصلاح الحال فقد أصبحت مراتب الجند لا تدفع بانتظام وكانوا يعيشون على ارهاب الحكومة وارهاق الشعب . والواقع انهم لم يكن لديهم ما يشغلون به منذ ساد السلام بين بغداد ومصر . وزادت الفتن بين القواد وعظمت القلاقل بين الجند بسبب العصبية الجنسية والمطامع الخاصة . وذهب ما كان للجيش الطولوني من صفات النظام والقوة . ولم يبق على الاخلاص التام لبنى طولون الا الجند السودان الذين امتازوا باخلاصهم لمن يتبعون فتراهم يعترضون على خلع جيش بن خمارويه قبل أن يعترف بعجزه عن حكم البلاد . وكان الجند السودان أول من حل بهم انتقام الجيوش العراقية فذبخوا عن آخرهم لأنهم لم ينضموا الى الجيش العباسي بل ظلوا على اخلاصهم لبنى طولون حتى النهاية .

الفضل العائش
البحراني في مصرني عند أحمد بن طولان

أصبحت مصر عقب الفتح العربى لها مركزا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة ، كما كانت تمتد هذا الأسطول بخيرة الملاحين والعمال المصريين . وأصبح اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية . وعقد المقرئى فى كتابه الخطط ، فصلا فى ذكر المواضع المعروفة بالصناعة ، كما أشار فى أماكن أخرى من كتابه الى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست فى سنة ٥٤ هـ (٦٧٣ م) ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس ، والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتالهم . وسميت جزيرة الروضة حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى أحيانا « جزيرة مصر » . ولكننا نرجح أن « الصناعة » أنشئت فى مصر الإسلامية قبل هذا التاريخ . فمعركة ذى الصواري التى انتصر فيها عبد الله بن سعد على الروم كانت فى سنة ٣٤ هـ وليس بعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدأوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وأن قتال الروم جعل المسلمين يعنون بصناعة السفن فى جهات مختلفة من أنحاء دولتهم بعد أن كانت الصناعة فى مصر وحدها . فيذكر المؤرخ البلاذرى أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم السواحل الإسلامية وكانت الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبى سفيان بإنشاء دار للصناعة فى عكا .

وكان لبناء السفن فى مصر فى فجر الإسلام شأن عظيم . وقد

أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم اشقاو - والتى ترجع الى العصر الأموى - أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة ، وفى القلزم (السويس الحالية) ، وفى الاسكندرية . ولم يقتصر نشاط المصريين على اعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق ، والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية . (١)

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر فى العهد العباسى أيضا . فيذكر المقرئى فى الخطط (٢) أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) فى خلافة المتوكل العباسى ، وفى ولاية عنبسة بن اسحاق على مصر « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وأنشئت الشوانى (٣) برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب . هذا وللناس اذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله واقامة

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ٩١ - ٩٢

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٩١

(٣) الشونة : المركب المعد للجهاد فى الحرب والجمع شوان

دبته ، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة في أنه يعد من جملتهم فيسمى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجلا ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الاسلام بلاد العدو فانها كانت تسير من مصر والشام ومن افريقية .

ونستنبط من كلام المقرئ ومن الأحداث التاريخية المختلفة أن قيام الخلافة العباسية ، واتخاذها بغداد قاعدة لها ، وزيادة اهتمامها بالبحار الشرقية ، لم يقلل من اهتمام العرب بالبحر المتوسط . وقد برهنت الحوادث أيضا على أن الدول المنفصلة عن الخلافة العباسية والتي تطل على البحر المتوسط ورثت اهتمام الخلافة الاسلامية بهذا البحر . وكان الصراع المستمر بين العرب والروم من أكبر الحوافز على هذا الاهتمام .

وقد عني احمد بن طولون بالأسطول عنايته بالجيش . ولكن لم تنضج الحاجة الماسة الى الأسطول الا بعد توسع احمد بن طولون في الشام اذ اضطر الى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى ثم المحافظة على طرق الاتصال البحرى بين سواحل مصر والشام . ولم يكن من الصعب على ابن طولون الاهتمام بالناحية البحرية وقد رأينا كيف كان لسكان مصر ، ولا سيما الأقباط ،

منذ فجر الاسلام فيها الفضل في بناء السفن وتشييد دور الصناعات في وادي النيل وفي افريقية وفي الشام ، وكيف ظل هذا الاهتمام بالبحر الى أيام عنبسة بن اسحق الذي سبق مجيء احمد بن طولون الى مصر بوضع سنوات . والحق أنه كان للمصريين الفضل الأكبر في عظمة الدولة الاسلامية بحريا ، اذ كانت الخلافة تعتمد عليهم في انشاء أسطولها الحربي بل المعروف أن بناء السفن كان في البداية بمصر فقط وظل كذلك الى زمن معاوية بن أبي سفيان ، وحتى بعد ذلك العهد كانت الخلافة تستخدم العمال والفلاحين المصريين في دور الصناعة التي أنشأتها في المشرق والمغرب كما يتبين من أوراق البردي . وفي اعتقادنا أن المحافظة على البحرية المصرية أو انشاء أسطول مصري في زمن احمد بن طولون كان استمرارا لتاريخ مصر الحربي المجيد ، ولم يكن من الأمور الشاقة أو الصعبة مثل انشاء جيش قائم في مصر حينذاك .

وقد زادت عناية احمد بن طولون بالناحية البحرية لما وضحت مشروعات الموفق للقضاء عليه . وحين كان احمد بن طولون يستعد لصد الجيش العراقي القادم بقيادة موسى بن بغا ، حصن جزيرة الروضة وأبقى على دار الصناعة فيها وبنى مائة سفينة حربية .

وقد حفظ لنا ابن سعيد نصا عن ابن الداية وفيه يأمر أحمد ابن طولون عامله على دار الصناعة بألا يدخر وسعا في بناء السفن بناء طيبا متينا لتقوى مكانة ابن طولون في البحر .

وعنى احمد بن طولون بدور الصناعة عناية فائقة . ويذكر
البلوى أنه عهد بالاشراف على احدى دور الصناعة الى أبى
شجاع كامل بن أسلم .

وطبىعى أن المراكب الحربية كانت متنوعة فى أحجامها
وأغراضها كما تدل على ذلك الأسماء التى أطلقت عليها ، وإن
كنا لا نعرف أوصافها أو معدات تلك السفن وأسلحتها . وقد ذكر
البلوى فى كتابه « سيرة احمد بن طولون » نصا عن الأسطول
الطولونى يبين فيه عدد السفن أيام احمد بن طولون وأنواعها حين
فكر الموفق فى ارسال موسى بن بغا على رأس جيش من العراق
ليصرف احمد بن طولون عن مصر ، فيقول عن احمد بن طولون :
« فعمل على محاربة موسى ، وتأمل البلد فعلم أنه لا يفتح الا من
جهة نيله ، فأراد لكبر همته وكثرة فكره فى العواقب ، أن يبنى
حصنا على الجزيرة التى بين الفسطاط والجزيرة ، ليكون معتلا
لحرمة لكثرتهم كانوا ولذخائره ، ويستعمل بعد ذلك لحرب من
يأتیه وقد زال فكره فيما سواه مما يشغل قلبه ، وأمر ببناء
الحصن على الجزيرة ، واتخذ مائة مركب عربية كبارا ، ومائة
مركب حربية سوى ما ينضاف اليها من العلايات ، والحمائم ،
والعشاريات ، والسناديل ، وقوارب الخدمة ، وعمل على سد
وجه البحر الكبير (أى البحر المتوسط) وأن يمنع ما يجىء اليه
من مراكب طرسوس وغيرها بنقض مراكبه ، ويكون ما فيها يذب
عن هذه الجزيرة ، وعمل على أن ينفذ الى الصعيد وأسفل

الأرض (أى الوجه البحرى) فيمنع من حمل الغلات الى البلد ،
ليمنع من يأتى من البر بالميرة » . (١)

والمعروف أن حملة احمد بن طولون على الشام أتاحت له
استخدام أسطوله بل انه أنشأ قاعدة بحرية فى عكا ، وحصن
هذه الميناء على يد مهندس من بيت المقدس ، وهو جد المقدسى
الجغرافى المعروف .

ولما تولى خسارويه بادر بارسال الأسطول الطولونى للسهر
على شواطئ الشام .

ولكننا نستطيع أن نقول بوجه عام ان نشاط الطولونيين
فى البحر كان ضئيلا ، ولا غرابة فى ذلك فقد كانت السيادة فى
البحر المتوسط آنئذ قد عقدت لبنى الأغلب الذين هزموا أسطول
الروم واستولوا على صقلية ومالطة وأغاروا على الشواطئ
الايطالية بل غزوا روما عاصمة ايطاليا مرتين .

وكان هناك ركن من الامبراطورية الاسلامية اقتضى موقعه
الجغرافى أن يكون له أسطول كبير . ونقصد بذلك الثغور بين
الروم والمسلمين . والمعروف أن أسطول الخلافة فى طرسوس هو
الذى قدم بقيادة أمير البحر دميانة - مولى يازمان - وساعد

(١) البلوى : مسيرة احمد بن طولون . ص ٨٦ - ٨٧ (تحقيق محمد كرد
على - دمشق ١٩٢٩م)

القائد محمد بن سليمان الكاتب في حملته على مصر ، ونجح في
القضاء على الأسطول المصري في تنيس (١) حيث كانت السفن
المصرية قد ذهبت للقاء أسطول دميانة حتى تمنعه من التقدم في
مياه النيل .

(١) تنيس : جزيرة في بحيرة المنزلة ، بالقرب من بون سعيد الحالية

الفضل الحادي عشر
بساط أحمد بن طولون والبيت الطولوني

كان لبنى طولون بلاط يذكر بما كان لبنى العباس في بغداد وسامرا ، بل كانت آيات الفخامة والترف في القطائع والنسائط أعظم منها في عاصمة العباسيين . وكان احمد بن طولون نفسه يقصد بذلك منافسة الخلافة وأن يوازن بلاطه ببلاط الخليفة . أما خلفاؤه فقد نشأوا في هذا العز وكان فيهم طبيعيا وغير مقصود . ولا ريب في أن الصفات البارزة في احمد بن طولون هي المعروفة عن غيره من مؤسسي الأسرات والدويلات من حزم وعزم وشدة . أما خمارويه بن احمد بن طولون ، وجيش بن خمارويه ، وهارون بن خمارويه فكانوا أميل الى حياة المرح واللهو .

وكان احمد بن طولون يرمى الى تكوين بلاط عظيم ويعمل على اتباع التقاليد الرسمية المتبعة بين حاشية الملوك والأمراء . وكتب ابن سعيّد في حديثه عن أسرة الاخشيد فقال : ان أول أمرائهم وهو محمد الاخشيد مؤسس الدولة الاخشيدية في مصر في القرن الرابع الهجرى ، اشتد ساعده بعد وفاة الوزير الفضل ابن جعفر وبعد مقتل ابن رائق . ويبدو أنه شعر حينئذ أن سلطانه قد توطدت دعائمه فاطمأن باله وزاد ميله الى التشبه بأحمد بن طولون وابنه خمارويه وأمر بأن تكون في بلاطه رسوم وتقاليد وقواعد للبروتوكول ، وأن تكون له امتيازات لا يشاركه فيها أحد من كبار رجال دولته . ومن ذلك أن يكون لسرج فرسه

حلية دقيقة وزخارف خاصة لا يشاركه فيها أحد ، وألا يلبس أحد
سواه جبة من الديباج المحلى بخيوط الفضة ، وألا يكون في
عسكره الخاص أى شيخ ، وأن يصبغ الشيوخ من جنده وحاشيته
لحاهم . (١)

ويظهر أن الحياة فى القرائع — عاصمة الطولونيين — كانت
فى بداية الأمر عسكرية بحتة فلم يكن فيها الا قصر الأمير وملحقاته
وثكنات الجنـد ، ولكن لم يلبث أن قام الى جوارها بعض
للحوانـيت والمتاجر اللازمة لحياة السكان .

واذا أردنا دراسة الحياة والنشاط فى القرائع يجدر بنا أن
نبدأ بالكلام عن حاشية الأمير وبلاطه والوسط الذى كانوا
يعيشون فيه .

كان أحمد بن طولون ولدا لملوك ، بعيدا عن وطنه وأسرته
فلم يكن له أقارب كثيرون يمكنه الاعتماد عليهم . والاثنان اللذان
كان ينتظر أن يكونا عوناً له علماه أن يحذرهما ، وهما ابنه
العباس بثورته وعقوقه ، وأخوه موسى بعناده وحسده وتكبره .

وقد ترك لنا ابن الداية نصاً طريفاً عن علاقة موسى بن طولون
بأخيه أحمد ، ويزيد فى أهمية هذا النص أن ابن الداية نقل حديثه

(١) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين . ص ١٢٠
(مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٠ .)

عن صديقه ابى جعفر محمد بن موسى بن طولون نفسه . والظاهر
أن محمدا هذا نفى من مصر مع أبيه موسى ولم يرجع اليها الا
بعد قتل خمارويه الذى كان قد عهد الى محمد ابن عمه بحكم
طرسوس .

وكان ابن الداية مؤرخا مخلصا لمهنته فذهب الى صديقه
وسأله أن يشرح له الأسباب التى فرقت بين أبيه وعمه ، فأجاب
محمد بأن ذلك يرجع الى أن موسى كان يأتى أمورا أغضبت أخاه
احمد ، وكان أشد هذه الأمور تدخله فى شئون الامارة ، واصداره
أوامر كانت تعطل سير الادارة .

واذا صح ما ذكره الكندي فى هذا الصدد فإن احمد بن
طولون أراد بعد قدومه الى مصر بستين أن ينفى أخاه موسى الى
العراق ، ثم عدل عن ذلك ، وأرجع موسى الى وظيفة صاحب
الشرطة .

ولكن الظاهر أن موسى لم يرجع عن تدخله فى أمور الحكومة
تدخلا غير حكيم ، وعن توسطه لأشخاص كان أخوه أحمد لا يثق
بهم حتى أصبح الأخير لا ينفذ له رغبة فغضب موسى وذهب الى
أخيه حانقا وقال انه لا يطمع منه فى شىء وانه يريد أن يلى حكم
الاسكندرية فيبعد بذلك عن مقر الحكم . ووعد احمد بذلك ،
ولكن هذا الأمير الذى حنكته تجارب الحكم كان لا يريد حينئذ
أن يغضب عامل الاسكندرية فضلا عن أنه كان ينتظر أن يعهد

اليه الخليفة بحكم الثغور فيستطيع أن يجد لأخيه عملا فيها . وقد كان يطمع في ارساله الى طرسوس ليخلد ذكره في هذه المدينة التي كان لا يزال يحفظ لها أعز الذكريات .

وكانت لموسى صداقة بأبى يوسف يعقوب بن اسحق كاتب أخيه فطلب منه أن يتحدث الى الأمير ليعرف ما الذى يراه في أمر توليته الاسكندرية . ففعل الكاتب ذلك ، وأجاب أحمد بن طولون بأنه لا يجد سببا لعزل اسحق بن دينار حاكم الاسكندرية الذى أظهر دائما ترحيبه بالأمير وكان متواضعا ومخلصا له . وطلب الأمير من كاتبه أن يشير على موسى ألا يصر على طلبه وذلك بدون أن يطلعه على الأسباب التي تمنع الأمير من اجابته . (١)

وقد ذكر ابن خلدون أن موسى ذهب بعد ذلك الى العراق ، ثم رجع الى طرسوس . ولسنا نظن أنه أراد الاتصال بالموفق والتآمر معه على حياة أخيه أحمد ، لأننا اذا اعتقدنا ذلك لا يمكننا تفسير رجوعه الى طرسوس . والمعروف على كل حال أنه مات في تلك المدينة .

والواقع أن العلاقة لم تكن طيبة بين أفراد الأسرة الطولونية ، وكان عدم التعاون بينهم سببا كبيرا من أسباب ضعفهم . ووضح

zakry M. Hassan : Les Tulunides pp. 178—179

(١) انظر

وما ذكر من مراجع

ذلك بعد مقتل خمارويه المفاجيء في سنة ٢٨٢ هـ . فقد سادت
الفرقة بين جيش وهارون ابني خمارويه ، وبين أعمامهما .

ونعرف أن هارون بن خمارويه عندما ذهب الى لقاء الجيش
العراقي الذي أرسلته الخلافة العباسية للقضاء على الدولة
الطولونية ، نزل بجنده في مدينة العباسية في شرقي الدلتا (نسبة
الى العباسية بنت أحمد بن طولون) وأخذ معه أعمامه كلهم وأفراد
أسرته . وقد ذكر الكندي أنه فعل ذلك كي لا يستطيع أحدهم
أن يثور ضده في الفسقاط .

وإذا استثنينا أحمد بن طولون نفسه فقد اشتهر أمراء بني
طولون بميلهم الى حياة اللهو والمجون وقضاء أوقاتهم في الشراب
ومع الجوارى والحسان ، بينما كان أحمد بن طولون مفرما
بقضاء وقته في تصريف أمور الدولة والتفتيش على سيرة الموظفين
وأعمالهم . وكان يعيش في قصره الفاخر ومعه حريمه وأولاده
وجواريه ومواليه . أما سائر حاشيته وأتباعه فكانوا يسكنون في
أبنية أخرى تحيط بالقصر . والظاهر أن أحمد بن طولون كان
لا يحب أن يختلط بقواده ورجال حاشيته اختلاطا يضعف هيئته .
ولعله لم يثق بوزير أو ناصح اللهم الا محمد الواسطي . وحتى
الواسطي نفسه ضعف نفوذه على الأمير في نهاية عهده . ولذا فإن
علينا أن نفهم أن المقصود عند المؤرخين العرب بعبارة « أصحاب
أحمد بن طولون » هم أتباعه وأعوانه .

وعلى كل فقد كان رجال الحاشية والقواد وكبار الموظفين
في بلاط أحمد بن طولون يحرصون على اجلاله والتحفظ بين
يديه لأنه كان جبارا لا يغفر لهم شيئا في هذا الميدان . ولعل ذلك
ناتج من شعور بأنه لم يخلق أميرا ، وان من الجائز أن يقاومه ،
أو يتآمر ضده بعض الكبراء أو القواد .

ويمكننا أن نرى فيما كتبه ابن الداية أسماء بعض قواد
أحمد بن طولون وأتباعه . والواقع ان ابن الداية كان يعتمد عليهم
وينقل عنهم كثيرا مما ذكره في سيرة أحمد بن طولون ، وفي كتاب
المكافأة . ومن تلك الشخصيات أحمد بن دعيم وكان من كبار
القواد وولاه أحمد بن طولون على مصر الوسطى ، وموسى بن
مصالح الذي كان مديرا للسجون والذي نقل عنه ابن الداية بعض
البيانات الهامة عن السجون الطولونية .

ومن الذين جاءت أسماءهم في معرض الحديث عن نزعات
أحمد بن طولون ، أو خروجه للتفتيش في العاصمة شعبة بن
صالح ، وأبو جعفر المروزي ، وأبو العباس الطرسوسي ، وهارون
ابن ملول ، وسعد الفرغاني ، كما أن بعضهم كان يحضر المجالس
التي كان يعقدها الأمير للنظر في المظالم ، وأكبر الظن أنهم كانوا
أشبه شيء بالياوران أو التشريفاتية في عصرنا الحالي .

وقد جاء ذكر معمر بن محمد الجوهري حين كان عضوا في
الوفد الذي أرسله أحمد بن طولون إلى ابنه العباس ليرجعه عن

الثورة . وجاء ذكره عدا ذلك في سيرة أحمد بن طولون لابن سعيد نقلا عن ابن الداية ف قيل انه عرض ابن طولون على أن يشترك معه في تجارة الكتان ففعل ، ثم رأى ابن طولون في المنام كأنه يمص عظما ليستخرج منه المخ ، فأرسل في طلب العسال الذي ذاع صيته في تفسير الأحلام ، فقال له العسال في تفسير ذلك الحلم ان الأمير يجرى وراء مكسب قليل الشأن ولا يليق به . وحدث أن دخل حينئذ العامل على الاحسان فطلب منه أحمد بن طولون أن يذهب الى الجوهري ويسترد منه المال الذي كان الأمير قد وضعه عنده في تجارة الكتان ويفرقه على الفقراء . وثمة شخص آخر في بلاط أحمد بن طولون عرف بجشعه وبالثروة الطائلة التي جمعها حين كان موكولا اليه أمر النفقات في قصر الأمير . هذا الشخص هو ابن المفضل وكان ذكيا استطاع أن يحتفظ برضاء أحمد بن طولون مدة طويلة . ولكن حدث أن أحمد بن طولون طلب اليه ذات مرة ألا ينفق شيئا من دخل الأراضي الزراعية التي كان يملكها الأمير ، والتي كان دخلها موقوفا على نفقات القصر ، ولكن الأمير أراد تلك المرة أن يحتفظ به لحملة يوجهها الى طرسوس . فأمسك ابن المفضل النفقات عن طبأخي القصر وخدمه محتجا بأمر أحمد بن طولون ، وبعث هؤلاء بمندوب يشكو الى الأمير ، فاغتاظ ابن طولون واستدعى المفضل ولامه على أنه لم يستطع تدبير المال اللازم لنفقات القصر من باب آخر مدة يوم أو يومين . فحلف ابن المفضل بأنه لا يستطيع ذلك

وبأنه لا يملك ما يلزم لهذا السبيل . فأمر أحمد بن طولون أحد أتباعه بأن يستولى على أملاك ابن المفضل وبأن يحضر الى الأمير النقد الموجود . وذكر ابن الداية فى هذه المناسبة أن ما وجد عند ابن المفضل بلغ ٧٨٠٠٠ دينار .

ولم تشتهر فى بلاط أحمد بن طولون نساء اللهم الا جاريته ائمت . والظاهر أنها كانت تنعم بقسط وافر من الحرية ، فان ابن الداية قد نقل عنها معظم البيانات التى تركها لنا عن حياة أحمد ابن طولون الخاصة . والمعروف أنها كانت أم ثلاث من بناته . والظاهر أنها كانت تدير « حريم » أحمد بن طولون . ومن المحتمل أنها كانت غير صغيرة فى السن فانتا نراها تعنى بالترويح عن الأمير ، وتعنى بيته وسائر حريمه وجواريه ، ولكننا لا نعلم أنها كانت ذات شأن يذكر فى الأمور العامة .

وكان أحمد بن طولون مغرما باستعراض جنده . وكانت له فى تلك المناسبات مواكب ضخمة تظهر فيها عظمته وسلطانه . كما كان من أسباب راحته وسروره أن يجلس فوق قمة قصره مطلا على العاصمة ليرى الشعب فى أيام العرض أو أيام الصدقات .

وذكر المؤرخون أن أحمد بن طولون ترك سبعة عشر ولدا وست عشرة بنتا . ومن أولاده العباس وخمارويه وعدنان ومضر وشيبان وربيعة وأبو العشائر وتركبان . وكان العباس أكبرهم ولكنه نحى عن ولاية العهد لأن والده أوصى بالعرش لخمارويه

ويحتمل أنه فعل ذلك وهو على فراش الموت تلبية لرغبة قواده وأعوانه الذين كانوا يكرهون العباس لأنه لم يشترك في حياتهم الحرية ، ولأنهم أساءوا إليه بأمر والده بعد اخضاع ثورته . وقد كانوا بطبيعة الحال يخشون أن ينتقم منهم بهذا السبب . وفضلا عن ذلك فالظاهر أن خمارويه كان محبوبا بينهم ومقربا الى قلوبهم .

ولسنا نستطيع أن نعين بالدقة مصير العباس في ذلك الوقت فجمهرة المؤرخين تتفق على أنه كان في السجن حين توفي أبوه . ولكن النويرى شذ عن سائر المؤرخين وزعم أن ابن طولون قبل وفاته ببضعة أيام دعا اليه العباس وعقد له على حكومة الشام وأملاك مصر خارج وادى النيل وطلب اليه في الوقت نفسه أن يخضع لأخيه خمارويه . ونحن لا نستطيع أن نأخذ بهذه الرواية فأننا نستبعد أن ينسى أحمد بن طولون ثورة ابنه الماضية وألا يفتن الى ما قد يجره التقسيم بين ابنيه من خراب على الأسرة اذا طالب الأكبر بالخضوع للأخ الصغير .

وترك لنا ابن سعيد وصفا مستفيضا لتولية خمارويه وقص علينا كيف أن أول ما عنى به أعوان ابن طولون وقواده بعد وفاته هو أن يحصلوا من العباس على البيعة بالامارة لأخيه خمارويه ، فدعوه بحجة التحادث الى أبيه ثم أخبروه بوفاته وطالبوه بالاعتراف بالامارة لخمارويه . فرفض العباس ولكن الواسطى

قال له ان ذلك لن يجديه نفعا لأن خمارويه أميره وسيدده وقد
استحق بطاعته أن يقدمه والده عليه . ونزع اثنان من أعوان ابن
طولون سيف العباس ومنطقته ، مما يدل على انه لم يكن مسجوناً
تماماً وربما كان مراقباً فحسب ، ثم ذهبوا به الى السجن . والظاهر
أن بطانة ابن طولون ، ولا سيما الواسطي ، ألحوا على خمارويه
في التخلص من العباس واستصعدوا منه أمراً بقتله . والواقع ان
الأمر كانت قد استقرت لخمارويه قبل قتل العباس . وكان قتل
العباس من الاجراءات الاحتياطية التي أريد بها تأمين سلامة
الدولة ، وان خمارويه لم يتول العرش بفضل قتل أخيه كما زعم
المستشرق الأب لامانس .

الفصل الثاني عشر
الإدارة في عهد أحمد بن طولون

كانت الوظائف العامة أقل تعقيدا مما هي اليوم . ولكن
دراستها الآن ليست أمرا سهلا للغاية ، وذلك بسبب عدم تحديد
اختصاصها . ولم يكن هناك فصل كبير بين السلطات التنفيذية
والتشريعية والقضائية .

وكانت السلطة التنفيذية في البلاد الاسلامية في يد الأمير اذ
لم يطغ على نفوذه شخص أو أشخاص من رجال البلاط أو الجيش
أو الادارة .

وكان الأمير يعين من يشاء في الوظائف العامة ، ولكن أولئك
الموظفين كانوا تحت رحمته ومستولين أمامه .

وطبيعى أن العرب في الجاهلية لم يكونوا في حاجة الى أداة
حكومية معقدة فلما أصبحت لهم امبراطورية واسعة لم تكن
لديهم الأساليب الادارية الموروثة ، ولذا فقد استعاروا عن الروم
والفرس منذ عهد عمر بن الخطاب معظم ما احتاجوا اليه في هذا
الصدد . وكانت القوة التشريعية مستمدة من القرآن والحديث
وما يصل اليه الفقهاء من الآراء بعد دراستهما .

والمعروف أن العرب لم يغيروا كثيرا في أنظمة الادارة بمصر
حين فتحوها . اذ وجدوا بها نظاما ادارية قامت منذ أقدم الأزمنة
ونمت وترعرعت في خلال العصور المختلفة ، فقضت عليهم الحنكة

السياسية ألا يمسوا تلك النظم ، بل أبقوا عليها كما فعل الرومان من قبلهم عندما كانوا يحتلون بلادا راقية في نظمها متقدمة في حضارتها . واكتفى العرب بشغل بعض المناصب الرئيسية ليصرفوا على الادارة بوجه عام ، ثم بدءوا في تعريب أنظمة الادارة في مصر منذ خلافة الوليد بن عبد الملك وفي سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) أثناء ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر . (١)

ومن الوظائف التي يمكننا الكلام عنها في العصر الطولوني ما يأتي :

١ - الحاجب :

كان للحاجب شأن خطير فقد كان بمثابة كبير الأمناء أو رئيس الديوان ، وكان واسطة الاتصال بين الأمير وأفراد رعيته . وكان الحاجب في بداية الأمر ياورا بسيطا يقف بباب الأمير ، ثم زاد نفوذه شيئا فشيئا حتى أصبح في بعض الأحيان مستشارا أو سكرتيرا عاما للأمير . بل ان لقب الحاجب في الأندلس لم يلبث أن أصبح مرادفا للقب رئيس الوزراء . (٢)

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٠ - ٣٦ ، ص ١٩٩ -

٢٠٣

(٢) راجع : ابن خلدون : المقدمة (الفصل الرابع والثلاثون في مراتب الملك والسلطان والقابها .. الحجابة) ، والمقريزي : خطط ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٢ ، القلقشندي : ضوء الصبح المسفر ص ٢٤٧ ،

Zaky Hassan: Les Tulunides p. 193.

ولعل بلاط الخلفاء والأمراء المسلمين كان يشتمل على عدد من الأمناء أو التشريفية كما نقول الآن ، وكان كل منهم يسمى حاجبا ، ولكن هذا اللقب كان في معظم الأحيان يقصد به رئيسهم . والمعروف أن أحمد بن طولون كان يقلد بلاط الخليفة وحكومة العراق في تقاليد البروتوكول وأساليب الإدارة فكان في بلاطه عدد من الحجاب . ونرى في المصادر التاريخية أن هذا اللقب يحمله عدة أشخاص . ولكننا لا نرى في عصر الدولة الطولونية أن اللقب المذكور أصبح وفقا على موظف كبير الا في عصر هارون ابن خسارويه .

والظاهر أن وظيفة الحاجب الأكبر في عصر أحمد بن طولون كان يقوم بمهامها تابع اسمه نسيم ، ولكنه لم يحمل هذا اللقب على الرغم من أن الأمير كان يثق به ويعتمد عليه ، ويكلفه بكثير من المهام في بلاط الخليفة .

وصفوة القول أن أحمد بن طولون كان له حجاب كثيرون ولكننا لا نستطيع أن نعرف لمن منهم كانت الرئاسة واللقب وإدارة البروتوكول . وكان بعضهم يسمى « سعاة » فحسب . ومن ذلك أن ابن الداية قد نقل إحدى القصص عن شخص اسمه الفارسي قال عنه انه كان « ريسا من السعاة لأحمد » .

وأكبر الظن أن أحمد بن طولون لم يسمح لأحد من أتباعه بأن يزداد نفوذه وسلطانه حتى يكون « حاجبا » بالمعنى الذي

وصل اليه هذا اللقب من رئاسة ديوان الأمير وعظم النفوذ فيه .
وليست لدينا نصوص تاريخية عن هذا المنصب في عصر
خمارويه ثم عصر ابنه جيش . والمحتمل أن مناصب الجباب
كانت كثيرة بدون أن ينفرد أحد الأشخاص بالنفوذ وإدارة
الديوان .

٢ - الوزير :

لا نظن أن هذا المنصب كان موجودا في مصر الطولونية ،
ولعل ذلك راجع الى طبيعة أحمد بن طولون التي كانت تسمح
لأشخاص كثيرين بأن يكونوا أعوانا ونصحاء ومستشارين ،
ولكنها تأبى أن يصل أحدهم الى قسط وافر من النفوذ والسلطان
في أمور الحكومة . وربما جرى خلفاء أحمد بن طولون على هذه
السنة بدافع التقليد فحسب . وكان لقب وزير حينئذ يكاد يكون
وقفا على وزراء البلاط العباسي . وقد ذكر السيوطي في كتابه
« حسن المحاضرة » أن مصر ظلت ولاية بدون وزير حتى قيام بني
طولون ، وإن أبا بكر محمد بن رستم الماذرائي كان وزيرا
لخمارويه . وذكر أبو المحاسن في النجوم الزاهرة ، أن هذا
الماذرائي كان وزيرا لهارون بن خمارويه . ولكننا نعرف من
المصادر التاريخية المختلفة أن أسرة الماذرائيين التي قدمت الى
مصر من العراق زمن الطولونيين أصبحت زعامتها منذ ولاية
خمارويه لعلى بن أحمد الماذرائي الذي اختاره خمارويه وزيرا له

أو كاتباً . وفي سنة ٢٧٢ هـ استقدم علي بن أحمد الماذرائي إلى مصر ولديه أبا بكر محمد بن علي - وهو الذي يشير إليه السيوطي وأبو المحاسن - وأبا الطيب أحمد بن علي . ونعرف أن الأمير هارون بن خمارويه استوزر أبا بكر محمد بن علي ، وظل الأخير يدير أمور الحكومة في مصر إلى أن قدمت الحملة العراقية للقضاء على دولة بني طولون ، فعاد مصر مع من غادرها من عمال الطولونيين في صحبة محمد بن سليمان إلى بغداد . (١)

أما في عهد أحمد بن طولون فالتنا عرف أنه كان للواسطي شأن عظيم عند صديقه ومولاه أحمد بن طولون ولكننا لا نجده يسمى وزيرا إلا في مناسبة واحدة ، وهي عندما سافر ابن طولون إلى الشام واستخلف على مصر ابنه العباس وجعل له الواسطي إقاصحا ووزيرا . وحتى في هذه المناسبة نظن أن كلمة وزير كانت صفة لما يقوم به أكثر منها لقباً يدل على منصب معين .

ويجدر بنا في هذه المناسبة أن نشير إلى خطأ وقع فيه المستشرق الانجليزي الاستاذ جيب Gibb في المقال الذي كتبه عن الطولونيين في دائرة المعارف الإسلامية . فقد كتب الاستاذ المذكور « أن موت الواسطي - الذي كان السيد اليمنى لأحمد ابن طولون في الأمور المالية ظهرت آثاره في سير الإدارة » .

(١) انظر من أسرة الماذرائيين : دكتورة سيدة كاشفة: مصر في عصر الاخشيديين

ص ٣٩ - ٤١ وما ذكرته من مراجع .

والواقع أن الواسطى هجر بنى طولون وتنحى عن خمارويه منذ بداية حكمه . وفضلا عن ذلك فأننا نذكر أن الواسطى لم تكن بيده الأمور المالية في الدولة ، بل كانت من اختصاص أبى أيوب ابن أخت ابى الوزير .

٣ - صاحب الشرطة :

كان صاحب الشرطة في مصر بعد فتح العرب لها بشابة نائب للوالى يؤم الناس في الصلاة اذا مرض الوالى ، ويحكم الولاية اذا خرج الوالى من مقر ولايته . ولذا نجد أنه كثيرا ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليا على مصر اذا ما عزز الوالى ، أو مات ، أو تنحى عن أمور الولاية .

وكان والى مصر هو الذى يعين صاحب الشرطة . ونادرا ما كان الخليفة هو الذى يعين صاحب الشرطة ، فنعرف أن الخليفة المأمون العباسى عين صاحب الشرطة بمصر بعد ما قضى على الثورة التى كانت فيها سنة ٢١٧ هـ .

ولا بد أن وظيفة صاحب الشرطة في مصر كانت شبيهة باختصاصات الخلافة نفسها . فكان الوالى يعهد الى صاحب الشرطة بتطبيق القوانين وبتنفيذ العقوبات التأديبية التى يفرضها ، وينشر الأمن في البلاد ومنع الجرائم . كذلك كان من واجب صاحب الشرطة نشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد .

فكان والى مصر مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣ هـ يتشدد في نشر الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد ولذلك نراه ينبه صاحب شرطته أزجور الى ذلك .

وكان مقر صاحب الشرطة في الفسطاط . ولما أنشئت العسكر على يد أول الولاة العباسيين في مصر أنشئت في حاضرة مصر الاسلامية شرطة جديدة سميت الشرطة العليا ، وكان مقرها دارا جنوبى المكان الذى شيد فيه ابن طولون المسجد الجامع . ولا ترجع تسميتها الشرطة العليا الى أنها أعظم شأنًا من شرطة الفسطاط كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكن هذه التسمية مشتقة من الموقع وحدود الاختصاص وتشهد بأن تقسيم الفسطاط الى « عمل فوق » و « عمل أسفل » يرجع الى عهد انشاء العسكر سنة ١٣٣ هـ . وقد ذكر هذا التقسيم المقرئى فى كتابه الخطط . بل اننا نرى المقدسى يكتب فى كتابه « أحسن التقاسيم » ان جامع عمرو كان يسمى الجامع السفلى ، وجامع ابن طولون الجامع العلوى . وكان صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط أعلى شأنًا وأعظم اختصاصا من زميله بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى الحاضرة . ونرى الكندى يذكرهما معا مرة واحدة فى ولاية صالح بن على العباسى الثانية فى سنة ١٣٦ هـ ، ولكنه لا يذكر بعدها الا صاحب شرطة الفسطاط .

وكان صاحب الشرطة فى عهد أحمد بن طولون موظفا خاضعا

للأمير ، يعينه ويملك عزله ومحاسبته . وكان لصاحب الشرطة في العاصمة نفوذ كبير . وأكبر الظن أنه كان له أعوان في سائر أنحاء القطر ، ولسنا نعرف هل كان تقليدهم من الأمير ، أو من صاحب الشرطة ، أو من حاكم الاقليم ، كما لا نعرف أمام أي هيئة كانوا مسئولين . والظاهر أن الذين شغلوا هذا المنصب في عصر بني طولون كانوا كلهم من الترك . والمعروف أن موسى بن طولون كان صاحب الشرطة فترة من الزمن .

ولما قدم أحمد بن طولون الى مصر أقر في الشرطة بولغيا الذي كان صاحب الشرطة في عصر سلفه ازجور ، ولكنه لم يلبث أن صرفه في شوال سنة ٢٥٤ هـ وعين تركيا اسمه بوزان ، ولسنا نعرف هل كان هذا الموظف الجديد من أتباع أحمد بن طولون ، أو من الذين استقروا في مصر قبل قدومه . وكان ينوب عن بوزان ، محمد بن اسبنديار الذي كان قبل ذلك صاحب الشرطة في عهد الوالي يزيد بن عبد الله التركي وقبل قدوم أحمد بن طولون الى مصر بثلاث سنوات ، ثم في عهد الوالي مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) . ثم عزل بوزان في رجب سنة ٢٥٥ هـ ، ولسنا نسمع ذكرا بعد ذلك لمساعدته وخليفته محمد بن اسبنديار .

وفي رأينا أن الذي حل محل بوزان هو موسى بن طولون نفسه . وقد ذكر الكندي في هذا الصدد موسى بن طونيق ،

ولكننا نظن أنها غلطة لأن الكندي نفسه يحدثنا بعد ذلك أن أحمد بن طولون عندما خرج لاختضاع عيسى بن الشيخ « استحلف أخاه موسى بن طولون على مصر وصرفه عن الشرطة فجعل موسى على شرطه محمد بن عيسى ورجع أحمد بن طولون من الطريق بكتاب ورد عليه من العراق فدخل القسطنطينية لأيام خلت من شعبان ، فعاد موسى بن طولون إلى الشرطة» (١) . أما موسى بن طونيق فقد خلف موسى بن طولون على الشرطة بعد أن رحل الأخير إلى العراق . وعلى كل حال فقد كان لابن طونيق شأن في الإدارة في عصر الدولة الطولونية . والمعروف أن أحمد ابن طولون صرفه عن الشرط وأعاد أخاه موسى إلى هذا المنصب ، ثم عزله ، وعين بدله شخصا اسمه طغلغ .

وقد تقلد موسى بن طونيق رئاسة الشرطة مرتين بعد ذلك في عصر خمارويه ، وأقره جيش ، وهارون ، وشيبان بن أحمد بن طولون ، في هذا المنصب حتى قدم الجيش العراقي ، وكان ابن طونيق بين الرجال الذين أخرجهم محمد بن سليمان من مصر بعد أن تم له فتحها .

ومن رجال الإدارة في الدولة الطولونية أخوان : طخشي بن بلبرد وكان مساعدا لطغلغ صاحب الشرطة الذي أشرنا إليه ، ثم عين أحمد بن طولون طخشي عاملا على الثغور ثم واليا على

(١) الكندي : الولاة والقضاة . ص ٢١٥ « طبعة جست » .

طرسوس حتى مات بعد بضع سنين ، أما أخوه ابراهيم بن بلبرد فقد عين عاملا على الشرطة قبل الحملة الطولونية الأولى على الشام بفترة من الزمن . ولما رجع أحمد بن طولون من حملته صرفه عن الشرط ، وأرسله على رأس جيش لاختضاع ابنه العباس . وكان خلفه في هذا المنصب السرى بن سهل الذى بقى فيه الى سنة ٢٧٢ هـ (٨٨٥ م) حين عزله خمارويه وعين بدلا منه موسى بن طونيق .

٤ - صاحب الكورة :

عرفنا أن العرب لم يغيروا كثيرا فى الأساليب الادارية التى كانت موجودة فى مصر قبل الفتح فكانت مصر مقسمة اداريا الى قسمين رئيسيين هما أسفل الأرض ، أو مصر السفلى ، أى الوجه البحرى ، والقسم الثانى هو مصر العليا أو الصعيد ، وأحيانا كان يضاف الى هذين القسمين الرئيسيين قسم ثالث هو مصر الوسطى أو « الصعيد الأوسط » . وكانت هذه الأقسام الكبيرة مقسمة بدورها الى أقسام صغيرة يعرف كل منها باسم « كورة » وهذا الاسم مشتق من اليونانية . وكانت كل كورة تنقسم الى عدة قرى .

وكانت الواحات ، وبرقة ، وشبه جزيرة سيناء ، والأقاليم الواقعة على البحر الأحمر لها ادارة خاصة .

ويقال انه كان في مصر ثمانون كورة . وكان على رأس كل كورة حاكم يسمى « صاحب الكورة » وكانت له اختصاصات المديرين أو رؤساء المدن الحاليين . وكان لأصحاب الكورات اقامة الصلاة في المساجد الجامعة بحواضر كوراتهم .

ومع أن مصر كانت مقسمة اداريا الى هذه الأقسام ، فقد كانت جميعها تحت سلطة الوالى العليا مباشرة ، ولم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم وللإستقلال محليا بأمور اقليمهم ، فكان الحكم في مصر مركزيا الى أقصى حد . ويتبين ذلك من أوراق بزدي كوم اشقاو التى ترجع الى زمن الوالى قره ابن شريك (٩٠ - ٩٦ هـ = ٧٠٩ - ٧١٥ م) فى خلافة الوليد ابن عبد الملك الأموى . (١)

وكان تقسيم مصر على هذا النحو قائما فى عصر بنى طولون . وكان أصحاب الكورات مسئولين أمام الأمير مباشرة . ونعرف من نص لابن الداية فى كتابه المكافأة أن أحمد بن طولون قلد أحمد بن دعيم الصعيد الأعلى .

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام - ص ٢٩ - ٣٠ ، سيدة كاشف : الوليد بن هيد الملك « سلسلة اعلام العرب - رقم ١٧ - القاهرة ١٩٦٤ م » .

ولا نعرف بالضبط كم كان عدد الكورات في مصر في العصر الطولوني . ولعلها ظلت كما كانت في عصر الولاة قبل مجيء أحمد بن طولون .

وكانت كل كورة تشتمل على عدة قرى وعزب كما ذكرنا ، وكان رؤساء أو مشايخ القرى يعرفون في مصر في عصر الولاة ، أى بعد الفتح العربى لها الى مجيء أحمد بن طولون ، باسم موازيت . وكانت كلمة « مازوت » مأخوذة من الكلمة البيزنطية ميزوتروس (١) وهو العمدة الحالى . وقد عرف منذ العهد الطولونى باسم العميد .

ومن المحتمل أن حكام الأقاليم أو الكورات المهمة كانوا يختارون من كبار قواد الأمير وأعوانه . وقد أشار ابن الداية في احدى قصص كتابه المكافأة الى مدينة اهناس وكتب أن المتقلد لها كان « رجلا من أصحاب أحمد بن طولون يعرف بفهم متقدما عنده » . أما اختيار العمدة أو المازوت فلسنا نعرف قواعده تماما ولكننا نرجح أنه كان من أهل القرية نفسها .

وأكبر الظن أن رؤساء الكورات كان تحت تصرفهم قوات من الشرطة يعتمدون عليها فى اقرار النظام . ولا شك فى أن حكام الأقاليم المفتوحة فى الشام فى عهد أحمد بن طولون وخمارويه كان

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام : ص ٢٩ وما ذكرته من

مراجع .

يترك لهم جند وافر العدد . فقد كانت تلك الأقليم مهددة من الحكومة العراقية ومن الاضطرابات الداخلية .

ولسنا نعرف شيئاً عن مرتبات رؤساء الكورات وحكام الأقاليم . وبالنظر الى أن الحكومة كانت تعتمد عليهم في جمع الضرائب المقررة فمن المحتمل أنهم كانوا يحجزون منها مرتباتهم والمبالغ اللازمة لإدارة اقليمهم أو كوراتهم .

وقد كان الأمراء الطولونيون يقومون أحياناً بالطواف على بعض المدن أو الأقاليم في مصر ، وفي ممتلكاتهم الآسيوية . ونعرف أن أحمد بن طولون زار الاسكندرية عدة مرات . والمعروف أن الاسكندرية كانت تعتبر منذ العهد اليوناني في مصر حتى الفتح العربي جزءاً مستقلاً عن مصر . ويظهر أنها في العصر الاسلامي وبعد انقضاء الخلافة الأموية كان حاكمها شبه مستقل عن-والى مصر .

ويؤكد ساويرس بن المقفع ، مؤرخ « سير الآباء البطارقة » في مناسبات مختلفة ما نستشفه من سائر المصادر بأن الاسكندرية منذ العهد اليوناني حتى عصر الاخشيديين في القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي ، كانت تعتبر في معظم الأحيان جزءاً مستقلاً عن مصر حتى في القضاء . وبهذه المناسبة عندما وصل الى الأمير أحمد بن طولون ، تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسي ، يذكر ساويرس أن هذا الأمر كان بخلاف

ما جرت به العادة ، فانه لم يكن بين والى الاسكندرية ووالى مصر معاملة ولا خطابا بل كانوا يتهادون الهدايا فيما بينهما وكانوا من تحت سلطان واحد . (١)

ونعرف أن خمارويه بن أحمد بن طولون زار الاسكندرية أيضا . كما قام قبل وفاته بسنة واحدة برحلة كبيرة في مصر السفلى حيث استراح قليلا في قصر بمريوط ثم زار الصعيد حتى وصل الى أسيوط ورحل بعد ذلك الى الشام حيث قتل . (٢)

٥ - عامل البريد :

كانت وظيفة صاحب البريد ، أو عامل البريد ، من الوظائف الرئيسية الهامة . ولم تكن تلك الوظيفة قائمة في عهد الخلفاء الراشدين ، انما بدأتها الدولة الأموية نقلا عن الروم والفرس ، ثم تقدم نظام البريد في عهد الدولة العباسية . ويقال ان معاوية ابن أبى سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة ، وتبعه في ذلك الأمويون ومن بعده العباسيون . ولذا نجد الأمويين ، ومن بعدهم العباسيين يهتمون بعمارة الطرق لتقصير

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر في عصر الاخشيديين ص ص ٢١٩ ، سيدة كاشف : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية لساو برس بن المقفع وأعميته لدراسة التاريخ القومى : ص ٢٧ « مجلة الجمعية التاريخية المصرية - القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٢.

Zaky Hassan: Les Tulunides pp. 198-199.

(٢)

المسافات ولوصول الأخبار بسرعة . ولم يكن البريد نظاما يستعمله الشعب انما كان نظاما رسميا حكوميا الغرض منه نقل الأخبار بسرعة من مقر الخلافة الى الولايات المختلفة وتلقى الأخبار . وما لبث هذا النظام أن تطور واستعمله الخلفاء العباسيون ، منذ خلافة أبي جعفر المنصور ، للتجسس على ولاية الأقاليم وعمالها .

وهكذا كان من واجبات عمال البريد في البلاد المختلفة أن يكتبوا تقارير يرسلونها الى الحكومة المركزية . وهم يتجهون في ذلك الى حد ما « رسل السيد » *Missi Dominici* الذين أوجد نظامهم في التاريخ الأوروبي الامبراطور شارلمان ليتوسط على يدهم نفوذ الحكومة المركزية في الولايات ، فكان اثنان من هؤلاء الموظفين يزوران كل ولاية في يناير وابريل ويوليو وأكتوبر ويمثلان الامبراطور ، فكانا يفتشان على الولاية ، ويتفقدان أعمالهم ، ويتقبلان الشكاوى ، وتستأنف اليهما الأحكام ، ويشرفان بوجه عام على المصالح العامة للدولة .

ومهما يكن من الأمر فاننا نعرف ان أحمد بن طولون استخدم العيون والجواسيس والشرطة السريين منذ تولى أمر مصر . ولكن الظاهر أنه احتفظ في داخل الديار المصرية بنظام عمال البريد الى جانب الجواسيس المحترفين ، وانه كان يكل الى عمال البريد الأمور التي لم تكن من خطورة الشأن بحيث يتولاها أولئك الجواسيس المحترفون .

وكان في عاصمة الدولة الطولونية عامل على البريد ، هو الحسن بن مهاجر ، كما جاء في سيرة ابن طولون لابن الداية . ولاريب في أن الحسن بن مهاجر كان له عماله وأعوانه في سائر المدن والكورات . وقد جعلتهم طبيعة عملهم غير محبوبين عند الشعب ، كما يظهر من قصة ذكرها ابن الداية عن امرأة بدوية كانت لها حظوة عند ابن طولون فطلبت منه أن يشمل برعايته ابنا لها . وأمر أحمد بن طولون الحسن بن مهاجر بأن يجد لهذا الابن عملا مشمرا ، فعينه ابن مهاجر عاملا على البريد في قريته ورتب له عشرة دنانير في الشهر . ولكن الاعراية رجعت الى ابن طولون شاكية وقالت ان الأمير أمر بأن يوجد لابنها عمل مشمرا ولكن ابن مهاجر لم يجد له الا هذا العمل الذي يجلب العار ، والذي تفضل عليه الجوع الشريف . وأضافت انه اذا لم يكن الا هذا العمل فخير لابنها أن يتركه كي لا يتعرض لغضب الله وسباب المؤمنين . فضحك ابن طولون وأمر ابن مهاجر بأن يرتب على الابن عشرة الدنانير مع اعفائه من عمالة البريد .

ومهما يكن من شيء فان ابن مهاجر الذي كان عاملا على البريد في حكومة ابن طولون وصل الى منصبه هذا بعد مران طويل . فان أحمد بن طولون كان يعرف في سامرا حسينا الخادم المعروف بعرق الموت ، والذي كان عاملا على البريد في مصر قبيل قدوم أحمد بن طولون الى مصر . وكان أحمد بن طولون يعجب بذلكاء حسين الخادم وبعد نظره ، فلما أراد أن ينظم البريد سأل

أعوانه عن الذي كان اليد اليمنى لحسين في عمله بمصر فذكر له
ابن مهاجر فاستدعاه وألحقه بالخدمة . (١)

٦ - الجاسوسية والاستعلامات السرية :

وكان القائمون بها ولاء طولونيين يعيشون على مقربة من
خصوم أحمد بن طولون في العراق وغيره . والواقع أن أحمد بن
طولون كان له أشبه شيء ببعثة سياسية من وكلاء مقيمين في
عاصمة الخلافة .

وفضلا عن ذلك فانتا نعرف أن الموفق وأعوانه كانوا يبذلون
الجهود الوافرة في سبيل الدس لأحمد بن طولون عند قواده
وأنصاره ليتخلوا عن إخلاصهم له . وكان أحمد بن طولون يتقن
هذا الشر بوساطة فرض مراقبة دقيقة على كل شخص يشك في
أن له علاقة بعاصمة الخلافة . وطبعاً أيضاً أن أحمد بن طولون
كان يستخدم عيوناً في الدس لخصومه والعمل على إحباط
مكائدهم . والواقع أن ذلك العصر المضطرب كان مسرحاً خصباً
للجواسيس بأنواعهم يعملون لحساب الأمراء والوزراء وكبار
الموظفين .

ولكن الظاهر أن عيون أحمد بن طولون كان لهم مسحة
خاصة . فانتا اذا قرأنا النصوص التي جاءت في ابن الداية
لا يسعنا الا أن نتساءل اذا كان رؤساء أولئك الجواسيس وكلاء

Zaky Hassan: Les Tulunides pp. 201-202.

(١)

رسميين لابن طولون في بلاط الخليفة . والواقع ان ابن الداية يسمى كلا من طيفور أو خادم بن جوارى خليفة أحمد بن طولون. والمعروف أنهما - ولاسيما طيفور - كانا يشرقان على حركة الجاسوسية والدعاية الطولونية في بلاط الخليفة . ويبدو اذن أنهما كانا يمثلان ابن طولون عند الحكومة المركزية وكانا في الوقت نفسه يعملان مع أعوانهم على كشف أعداء بنى طولون ثم التخلص منهم أو كسبهم والتأثير عليهم .

وقد جاءت في ابن الداية عدة قصص عن جواسيس الموفق وجواسيس أحمد بن طولون يدل معظمها على أن أحمد بن طولون كان ماهرا في كشف جواسيس خصومه وأنه كان يجد عندهم في معظم الأحيان كتباً من الموفق الى قواد الجيش الطولوى . (١)

٧ - مدير السجون :

كان للسجون في الدولة الطولونية شأن كبير . واذا صح ما كتبه المؤرخون فان أحمد بن طولون قد ترك ثمانية عشر ألف شخص يهلكون في سجونهم . والمعروف ان الجيش العراقى الذى استرد مصر بقيادة محمد بن سليمان كان أول همه بعد فتح الفسطاط أن يطلق سراح المسجونين فى الفسطاط . ولذا فاننا نظن ان ادارة السجون كان يتولاها موظف كبير ممن خدموا الأمير وكسبوا ثقته . ولكننا لا نعرف من المصادر الا واحدا

منهم هو أبو مصلح موسى بن مصلح ، وكان العامل على السجون في عهد أحمد بن طولون نفسه .

وإذا صح ما جاء في قصتين رواهما ابن الداية في كتابه المكافأة فإن ابن مصلح هذا لم يكن مثالا للنزاهة ولسنا نعرف كيف غابت عيوبه عن ابن طولون اللهم الا اذا ذهبنا الى أن اخلاصه وبعض مزاياه الأخرى كانت تغطي على ما يتجلى من ضعف أخلاقه في القصتين اللتين رواهما ابن الداية . فأننا نراه في احدهما يتقاضى من جاعة من المسجونين مائة دينار نظير أن يطلق سراح واحد منهم قالوا ان قلبه يضعف عن لقاء الأمير واستطاعوا أن يأتوا بآخر يحل محله .

أما في القصة الثانية فنراه يطلق سراح أحد المسجونين ثلاثة أيام ليسكه الاتصال بشخص يسعى في الافراج عنه عند أحمد ابن طولون .

ولسنا نعرف شيئا كثيرا عن نظم السجون الطولونية اللهم الا بعض ما جاء في ابن الداية مستمدا من موسى بن مصلح . فمنها « ان أحمد كان يراعى أمر المحبوس حتى يمضى له حول فاذا جازه لم يذكره » . كذلك أشار هذا الأمير على ابن مصلح أن يحسن معاملة من تظهر له براءة ساحته ، وأن يسهل على الأبرياء أن يصلوا الى الأمير للدفاع عن أنفسهم وإثبات براءتهم . وطبيعي ان سجون بنى طولون لم تكن وقفا على المذنبين السياسيين ، فان الأزمات الاقتصادية التي حلت بالبلاد قبيل بنى

طولون جعلت المحافظة على الأمن والنظام أمرا صعبا في بعض الأحيان . والظاهر أن اللصوص وقطاع الطرق كان لهم نشاط خطر عندما تولى أحمد بن طولون ، فعمل على قطع دابرهم والقبض عليهم وتركهم يهلكون في سجونهم .

ويظهر أن المحبوسين لم يكن لكل منهم غرفة خاصة ، كذلك يبدو من بعض النصوص أنهم كانوا يستطيعون أن يشتغلوا بصناعة أشياء يبيعونها كما يريدون . ويمكننا أن نقول بوجه عام اننا لا نجد ما يدل على أنهم كانوا يلقون معاملة قاسية جدا اللهم الا اذا كان ذلك بأمر من الأمير نفسه لذنوب خاص أو خطير الشأن . فضلا عن أن الرشوة لم تكن نادرة ، ولا ريب أن ذوى اليسار من المسجونين كانوا يستطيعون في معظم الأحيان أن يشتروا راحتهم . ولعلنا نذكر أن بعض المسجونين كانوا من رجال الإدارة في الدولة ، أو كان مقدر لهم أن يصبحوا من رجال الإدارة بعد ذلك ، كما أن كثيرين منهم كانوا من ذوى المكانة الملحوظة في البلاد ، ولعل ذلك كله كان عاملا في ألا تكون في معاملة المسجونين قسوة غير عادية .

وقد حدثنا ابن الداية في كتابه المكافأة عن وسيلة أخرى من وسائل السجن ، كانت أشبه بالاعتقال السياسى في زماننا هذا ، وهى أن يؤمر المذنب بلزوم داره وعدم مبارحتها ، وأضاف ابن الداية الى ذلك « ان اعتقال الرجل في داره كان يؤيس من خلاصه » .

٨ - مدير دار الصناعة :

عرفنا أن أحمد بن طولون زاد في دار الصناعة بجزيرة الروضة . وأكبر الظن أن معظم العمال لم يكونوا من أصل عربى أو تركى ، بل كانوا من القبط أو المصريين المسلمين ، أو الروم . وغاية ما نعرفه من نص في ابن الداية هو أن أحد مديري دار الصناعة في عصر أحمد بن طولون كان يسمى أبا كامل شجاع بن أسلم ، والظاهر أنه كان فنيا في مهنته . ويظهر أنه سجن على يد أحمد ابن طولون ، ولسنا نعرف السبب ، وربما كان شجاع بن أسلم هذا قريبا لأحمد بن القاسم بن أسلم أحد أعوان العباس بن أحمد بن طولون في ثورته . وإذا صح هذا فربما كان سببا في سجنه .

٩ - ادارة الجوازات والجمارك :

من الوثائق البردية التى نشرت منذ سنين طويلة ما يتعلق بجوازات اقامة أو سفر . والظاهر ان حكومة أحمد بن طولون كان لديها ادارة لجوازات السفر ، لأننا نرى ذكرا لها فيما كتبه ابن الداية . فقد كتب هذا المؤلف أن موسى بن طولون عندما غضب من أخيه أحمد ذهب اليه حائقا وطلب منه جوازا للسفر حتى يترك الديار المصرية .

أما النص الثانى فهو أدق وأكثر تفصيلا وقد نقله ابن الداية عن شخص اسمه يعقوب بن صالح كان عاملا على الشرطة في مصر السفلى .

وهو يتعلق بتاجر كان قد اشترى من أحد أتباع أحمد بن طولون عبدا بمائتي دينار . وحصل بعد ذلك على جواز سفر له ولخادم معه . وكان في العريش على الحدود بين مصر والشام شخص اسمه حبيب المعري مختص بفحص جوازات السفر والأمتعة التي يحملها المسافرين . ولما رأى هذا الموظف جواز سفر التاجر اعتقد أن الخادم يلزمه جواز سفر مستقل وقائم بذاته ، ولم يقبل أن يسمح بالمرور للتاجر ومملوكه الا بعد وصول التعليقات التي طلبها بشأنهما من العاصمة . والواقع أنه كتب الى أحمد بن طولون نفسه يشرح له المسألة . وأمر الأمير باستدعاء التاجر وسأله عن مصدر العبد ، وعرف أنه اشتراه من أحد أتباعه وأنه يريد أن يمضي به الى مسقط رأسه لبيعه مع شيء من المكسب . ولما وجد الأمير أن ذلك كله لا غبار عليه أمر بإطلاق سراحه وإعطائه جواز سفر قانوني . وطالب التاجر بنفقات قدومه من الحدود وعودته اليها قائلا انه انفق في ذلك عشرة دنانير فأمر الأمير له بها ، وترك التاجر مجلس الأمير ليحصل على جواز السفر، ولكن الظاهر أنه انتقد بعد ذلك الادارة الحكومية الطولونية . وبادر الموظفون بإبلاغ ذلك الى أحمد بن طولون فأمر بحبس التاجر في المطبق (١) وحدث أن لقي هذا التاجر في السجن بعض زبائنه ومدينه ، ودفع الآخرون ما كان عليهم من دين . واشتغل التاجر في السجن

(١) المطبق : اسم السجن ، وهذا الاسم على غرار اسم السجن الذي بناه

أبو حنيفة المنصور في بغداد حين شيدها .

باقراض المسجونين المال على الصناعات التي كانوا يصنعونها وزادت مكاسبه في هذا الميدان حتى أنه لم يرد أن يترك السجن عندما عفا الأمير عنه . ولما استغرب أحمد بن طولون الموقف صارحه التاجر بأن الجزء الأكبر من ثروته مستغل في السجن وطلب منه أن يمهل ثلاثة أشهر يصفى فيها مركزه اذا كان لا بد من اطلاق سراحه . وتم له ما أراد .

١٠ - كاتب السر :

كان في بلاط بنى طولون أو على الأقل في بلاط أحمد بن طولون نفسه موظف يسمونه « كاتب السر » فضلا عن الكتاب أو السكرتيرين العاديين . ونظرا لخطورة شأن هذه الوظيفة فقد كان يختار لها شخص من أشد المقربين الى الأمير . وكان عمله أن يكون على مقربة من الأمير كلما استقبل أحدا ، فلا يظهر لأحد على الرغم من سماعه كل شيء . وكان يكتب محضرا بكل حديث بين الأمير وأفراد الرعية . وكان أحمد بن طولون يحرص على الارتفاع بهذه المحاضرة في تكييف خططه الحكومية المختلفة .

واذا تذكرنا أن الاختزال كان معروفا عند اليونان الأقدمين تساءلنا اذا كان كتاب السر يعرفون نوعا منها يستعيون به على ألا يفوتهم من الأحاديث شيء

١١ - صاحب الطراز .

من الصناعات التي ازدهرت بمصر منذ فجر الاسلام صناعة المنسوجات صوفية كانت أو بيديه او حريريته او قطنية . ولم تكن

هذه الصناعة أو غيرها من الصناعات التي اشتهرت بها مصر في عهد الولاة شيئا أحدثته الخلافة ، وإنما كانت مما اشتهرت به مصر منذ القدم . واستمرت صناعة النسيج زاهرة في العصر الاسلامي ، وبقيت هذه الصناعة في يد أهل البلاد سواء منهم من اعتنق الاسلام ، أو تمسك بالسيحية .

وقد تطورت صناعة المنسوجات وزخرفتها في العصر الاسلامي تطورا منتظما غير فجائي . وكان العرب يميلون في الزخرفة الى العناصر الهندسية والنباتية لكرهيتهم تصوير الانسان والحيوان . وكان هذا الميل نفسه قد دب الى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادي ، فأصبحت الرسوم الآدمية والحيوانية في زخارف المنسوجات القبطية محورة عن الطبيعة الى حد بعيد . وهكذا لم يجد المصريون صعوبة كبيرة في ارضاء الفاتحين وانتاج التحف الفنية التي تتفق ومزاجهم . وعلى كل حال فإن صناعة النسيج لم تطبع في مصر بطابع اسلامي ظاهر الا في العصر الفاطمي ، وحتى حين أصبحت صناعة المنسوجات في العصر الفاطمي اسلامية بحتة لم تخل في زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها في وادي النيل . (١)

وكانت مصر مشهورة على الأخص بنسج الكتان لوفرة زراعته وكذلك كان يصنع فيها المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية .

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ٦٠
(القاهرة ١٩٣٥ هـ)

وان كنا نرجح أن القطن والحرير الخام في مصر لم يكفيا الاستهلاك المحلي والتصدير ، وان مصر استمرت في استيرادهما كما كان الحال قبل الفتح العربى . وكانت أهم مراكز النسيج في الوجه البحرى ، وكذلك كانت توجد مراكز هامة للنسيج في مصر الوسطى والعليا . وذاعت شهرة الاسكندرية في صناعة النسيج . ويذكر المقرئى أن الثياب المنسوجة بالاسكندرية لا نظير لها ، وتحمل الى أقطار الأرض ، وان في ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عمل ثيابا ، يقال لها الشرب ، كل زنة درهم بدرهم فضة .

واشتهرت تنيس أيضا بالثياب الفاخرة والفرش ، وكان معظم أهلها يشتغلون بالنسيج ، وكان يحاك بها الثياب المعروفة بالشرب . ومما يدل على عظمة تنيس في النسيج أنه كان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة (١) غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار . وظل ذلك التصدير من تنيس الى ما بعد سنة ٣٦٠ هـ حين ولى وزارة الفاطميين يعقوب بن كلس فمنع الاصدار (٢) . وكان يوجد أيضا صناعة نسيج الأقمشة الشفافة الرقيقة التى يصفها المؤرخون بأنها

(١) اللحمة ما نسج مرضا والسدى من الثوب خلاف اللحمة وهو ما مد من الخيوطه .

(٢) ابن رسته : الاعلاق النفسية ص ٩٠ (ليدن ١٨٩١ - ١٨٩٢) ، المقدسى الحسن التقاسيم ص ٢٠٣ .

ثياب « مهلهله النسيج كأنها المنخل » (٣) ، وهى المسماة بالقصب، وكان هذا القصب يلون ، وكان الملون منه ينسج بتيس ولم ينسج فى أى مكان آخر قصب ملون مثله ، وكان يعمل منه عمام للرجال وملابس للنساء ، أما القصب الأبيض فكان ينسج فى دمياط . وكانت دمياط تقارب تيس فى شهرتها فى النسيج وكان يعمل بها الثياب الشرب والقصب . ويذكر المؤرخون المسلمون أنه ربما بلغ الثوب من ثيابها اذا كان مذهبا ألف دينار ونحو ذلك ، ومالم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوه . واشتهر فى النسيج أيضا من بلدان مصر السفلى شطا ودميرة وتونة وكلها قرية من تيس ودمياط .

واشتهر فى النسيج من بلدان مصر الوسطى والعليا مدينة البهنسا ، فكان ينسج بها الصوف والقطن . وكان اذا صنع بها شئ من الصوف أو القطن كتب عليه اسم المتخذ له ، وقد اتخذوا ذلك عادة لهم جيلا بعد جيل . وقد كانت الكتابة ذات شأن فى صناعة المنسوجات فى العصر الاسلامى .

واشتهرت القيس بثياب الصوف التى لم يكن لها مثل ، والقيس كما نعرف على مقربة من البهنسا ، من أعمال محافظة المنيا .

وكان هناك مصانع للنسيج فى الأشمونين ، وأسيوط ، وأخميم ، واهنلس ، وبوصير قريدىس وغيرها من بلاد الوجه

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٦٠ •

القبلى . وكانت هذه المنسوجات تنسب فى العادة الى البلاد التى
تعمل فيها فيقال الثياب الشطوية والقيسية ، ويقال التنيسى
والدمياطى .. الخ ..

أما صناعة الحرير فقد ازدهرت فى مدينة دبيق .

ولم يكن الفضل فى اتساع نطاق فن النسيج فى مصر فى
العصر الاسلامى راجعا الى الأهالى فقط وإنما كان يرجع الى
الحكومة أيضا ، فقد كانت تسيطر على مصانع النسيج . ونظام
السيطرة لم ينشئه المسلمون فى مصر ، بل أخذوه عن بيزنطة
والراجح المحتل أن يكون البيزنطيون قد أنشأوا فيها مصانع
حكومية للنسيج الى جانب المصانع الأهلية ، فلما جاء العرب أبقوا
على هذا النظام .

وكانت المصانع الحكومية للنسيج تسمى طرازاً ، وهى نوعان:
الأول طراز الخاصة حيث تصنع المنسوجات للخليفة أو للأمير ،
والأقشنة التى كان يخلعها على كبار رجال الدولة . والثانى طراز
العامية ، وكان يشتغل فضلا عن هذا بنسيج الأقشنة اللازمة
للشعب (١) . وكانت تسير مع الطراز الحكومى جنبا الى جنب
مصانع أهلية تثقلها الحكومة بضرائب فادحة ورقابة شديدة . (٢)
أما لفظ طراز فهو مشتق من الفارسية « ترازیدان »

(١) راجع مقال « طراز » الذى كتبه الاستاذ جرومان فى دائرة المعارف
الاسلامية « فى الجزء الرابع وفى الملحق » .

(٢) انظر : زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ٨٣ - ٩٠ ،

وكنوز الفاطميين للمؤلف نفسه ص ١١٠ وما بعدها . « القاهرة ١٩٣٧ م » .

و « تراز » بمعنى التطريز وعمل المديج Broderie ، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ، أو السلطان ورجال الحاشية ولا سيما اذا كان فيها شيء من التطريز وعليها أشرطة من الكتابة ، واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى في العربية والفارسية الى الدلالة على المصنع والمكان الذى تصنع فيه مثل هذه المنسوجات (١) . على أن كلمة « طراز » استعملت فى معان أخرى ، مثل الدلالة على أى نقش من النقوش التى توضع على شريط مستعرض من أى نوع كان سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو محفورا فى الخشب . كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التى كانت تكتب على درج البردى (٢) .

ولم يبق نظام الطراز ، أى المصانع الحكومية للنسيج ، وقفا على مصر ، بل نكاد نجده فى كل الأقاليم الاسلامية مثل الشام والعراق وايران وآسيا الصغرى واسبانيا وجزيرة صقلية . وتشمل مجموعة متحف الفن الاسلامى (الذى كان يعرف باسم دار الآثار العربية) فى القاهرة ، عددا من قطع النسيج بأسماء الخلفاء العباسيين والأمراء الطولونيين . والمعروف أن الضريبة التى كانت ترسلها مصر الى بلاط الخليفة العباسى ، ثم الهدايا التى أرسلها أحمد بن طولون الى الخليفة المعتمد ، والتى

(١) الدكتور زكى محمد حسن الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٤ .

(٢) أدولف جرومان : أوراق البردى العربية ج ١ ص ٢ - ٣ « ترجمة

الدكتور حسن ابراهيم حسن » .

أرسلها خمارويه من بعده الى الخليفة المعتضد ، كان فيها شيء كثير من الأقمشة الثمينة والمنسوجات النفيسة (١) .

وفي متحف الفن الاسلامى فى القاهرة قطعة باسم الخليفة المكتفى بالله والأمير الطولونى هارون بن خمارويه ، تاريخها سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) وهى السنة السابقة لسقوط الدولة الطولونية (٢) .

وفى العصر الطولونى كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لا تزال تسود صناعة النسيج ، على أن هناك بعض قطع من النسيج عليها زخارف طولونية أو عراقية ظاهرة . وفى متحف الفن الاسلامى فى القاهرة قطع عديدة أغلبها سميك ومنسوج فيه رسوم طولونية المسحة . ويوجد فى المتاحف الكبيرة والمجموعات الأثرية فى مصر ، وفى البلدان الأجنبية قطع عديدة ترجع زخرفتها الى عصر الانتقال من الطراز القبطى الى الطراز الفاطمى ويصعب فى بعض الأحيان تمييزها من القطع القبطية ، بينما يندر وجود القطع التى عليها زخارف طولونية بحتة تجعل من اليقين نسبتها الى العصر الطولونى (٣) .

ولم يحرص أحمد بن طولون على ذكر اسمه فى الطراز ، لأنه كان يعمل على أن يظل ولاؤه للخليفة نفسه ، وليس لأخيه الموفق

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٦ وما ذكره

من مراجع .

(٢) المرجع السابق ص ٨٧ .

(٣) راجع : الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر . ص ٨٨-٩٠

وما ذكره من مراجع .

صاحب الأمر في الحكم ، غير مشكوك فيه . أما خمارويه وهارون فقد ظهرت أسماؤهما في كتابة المنسوجات .

وكان يشرف على الطراز موظف كبير يسمى صاحب الطراز ، أو ناظر الطراز . ولسنا نعرف مدى سلطانه وحقوقه في العصر الطولوني ، ولكننا نستطيع أن نتصوره مما نعرفه عن حاله في العصرين الفاطمي والمملوكي حين كان من أعلى الموظفين مقاما وأحسنهم راتبا وأوسعهم سلطانا . وكان لصاحب الطراز مساعدون في مصانع النسيج بالبلاد المصرية كلها ، كما كان له مقر رسمي في الحاضرة ، ومراكب ينتقل بها في النيل (١) :

وكان يعاون صاحب الطراز في الاشراف على المصانع في كل اقليم من الأقاليم المصرية في فجر الاسلام موظف يسمى « المتوكل بطراز الاقليم » كما يتبين من وثيقة بردية في دار الكتب المصرية نشرها الأستاذ جرومان وترجع الى القرن الثالث الهجري وقد جاء فيها « قبض حسين بن يحنس من رماح بن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصني » (٢) :

ويجدر بنا أن نذكر أن مصر ، كما استمرت ترسل القمح سنويا الى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة وبعد أن استقلت مصر ، كذلك استمرت ترسل كسوة الكعبة سنويا ، بل

(١) دكتورة سيدة كاشف : مصر في مصر الاخشيديين ص ١٨٠ - ١٨١ وما ذكرته من مراجع .

(٢) A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library (٢) vol. II. p. 153 and plates 17 & 19.

أن إرسال كسوة الكعبة من مصر الى مكة كان يشير الى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الاسلامى كله . وكان النزاع الذى نشأ بين السلطان الملك الأشرف برسباى سلطان مصر (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) وشاه رخ ابن تيمورلنك بسبب ارسال كسوة الكعبة معناه نزاع حول الزعامة فى العالم الاسلامى (١) .

١٢ - السكة :

أسس فى مصر دار لضرب النقود على يد أحمد بن طولون ، حيث ضربت الدنانير التى عرفت بالأحمدية وامتازت بعيارها الجيد (٢) . ولا عجب فان السكة كانت تعتبر فى العالم الاسلامى من شارات الملك (٣) . ويبدو أن دار الضرب لم تكن كبيرة أو معقدة فى نظامها . وقد كتب ابن خلدون فى « المقدمة » أن السكة هى « الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه ، فيكون التعامل بها عدداً ، وإن

(١) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne T. IV pp. 563-564

(٢) المقرئى : كتاب النقود القديمة الاسلامية « فى النقود العربية وعلم النميات الذى عنى بنشره الاب انستاس مارى الكرملى » ص ٥٤ و ٥٧ ، وانظر : البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ١٩٦ ،

Zaky M. Hassan : Les Tulunnides pp. 210-211.

(٣) ابن خلدون : المقدمة « الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به » .

لم تقدر أشخاصها يكون بها وزنا ولفظ المسكة كان اسما للطابع وهي الحديدية المتخذة لذلك ثم نقل الى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول : وهي وظيفة ضرورية للملك ، اذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات . ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة .

ويبدو أن الختم على الدنانير والدراهم وعيارها كان يقوم به نفر قليل من الموظفين يعرف بعضهم باسم « المعدلين » ، ويعرف الآخرون باسم « السباكين » . ويشرف عليهم « متولى دار الضرب » . ولكن الأمير كان يعنى بأعمالهم ويطلب أن يطلع عليها وأن يقوموا ببعضها في حضرته بين وقت وآخر . وكان الأمير في بعض الأحيان يعهد بالاشراف على دار الضرب الى القاضي . ويبدو لنا أن موظفي دار الضرب كانوا ينتقلون مع الأمير في بعض الأحيان أو يلبون طلبه في موافاته الى حيث يكون خارج مصر . فان النقود التي نعرفها من العصر الطولوني ضربت في مدن مختلفة مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وانطاكية . والراجح عندنا أن هذه المدن لم يكن في كل منها دار مستقلة لسبك النقود ، وانما كان الأمير يعتمد على الاخصائيين عنده في هذا الميدان ، اللهم الا اذا فوض نائبه ببلد من البلاد في الاشراف على ضرب النقود فيها أو كان البلد مشهورا بدار للضرب فيه .

١٣ - الموظفون الطولونيون :

مما يلفت نظرنا في الادارة الطولونية بوجه عام غياب العنصر القبطى فيها ، أو على الأقل بعده عن الوظائف الرئيسية فيها ، لأننا نرجح أن وظائف الصيارفة كانت لا تزال معظمها في أيديهم . ولكننا نلاحظ أن القبط لم يكن لهم في عصر بنى طولون من النفوذ في الوظائف العامة ما كان لهم في فجر الاسلام وفي عصر الاخشيديين والفاطميين بل والمماليك أيضا . والواقع اننا اذا استثنينا مهندس الجامع الأكبر ، ثم سعيد بن نوفل طبيب ابن طولون ، واسحق بن نصر العبادى كاتب خمارويه ، ولا نجد موظفا مسيحيا علا شأنه حتى لفت نظر المؤرخين في ذلك العصر . والظاهر أن سبب ذلك لا يرجع الى الرغبة في ارضاء الفقهاء أو الشعب من المسلمين بقدر ما يرجع الى اخلاق احمد بن طولون نفسه . ويلوح لنا أن احمد بن طولون كان يلقي على القبط قسطا وافرا من تبعة الافلاس الادارى ، والتأخر الاقتصادى اللذين سادا في مصر قبيل قدومه اليها . ومن ناحية أخرى فقد كان الجيش عماد كل شىء في البلاد وعليه كان أحمد بن طولون وخمارويه يعتمدان في نضالهما ضد الحكومة العراقية فطيمى أن يختار أعوان الأمير في المناصب الرئيسية من بين قواد هذا الجيش المختلف العناصر .

والواقع أنه منذ زاد نفوذ الترك في الخلافة الاسلامية ، وأصبح الخليفة يقطع أحد قواد الجند الترك الديار المصرية

وكذلك اثناء حكم الدولة الطولونية لانكاد نجد عربيا صميما له شأن كبير في ادارة مصر اللهم الا أصحاب المناصب القضائية . والمعروف أن هؤلاء قل نفوذهم جدا في العصر الطولوني ولاسيما بعد نشوب الخلاف بين أحمد بن طولون والقاضي بكار . بل ان منصب هذا القاضي ظل شاغرا سبع سنوات بعد وفاة بكار .

والظاهر كذلك انه لم يكن ثمة شأن يذكر في الادارة الطولونية للعرب الذين جاء آباؤهم وأجدادهم من شبه الجزيرة واستقروا في مصر على دفعات متتالية ، والذين تفرقوا في الأقاليم واختلطوا بالسكان الأصليين وأصبحوا يعيشون على الأساليب التي كانت سائدة في مصر منذ العصر الفرعوني . ولكننا نعرف ان نوعا من الارستقراطية العربية والطبقة الوسطى كان موجودا في المدن الكبيرة ولاسيما الفسطاط . فضلا عن أن طبقة أخرى كانت لاتزال قائمة في العاصمة ابان العصر الطولوني وهي طبقة من كان لهم شأن في حكم البلاد قبل قوم أحمد بن طولون .

ولا ريب في أن أحمد بن طولون لم يهمل رأى تلك الأرستقراطية العربية بل كان يحسب لها حسابها وذلك بدون أن يترك لها نفوذا مباشرا في الحكم .

ويظهر كذلك أن أحمد بن طولون كان يفضل أن يتخذ كتابه من العرب أو من الفرس الذين استوطنوا مصر . ولدينا في هذا الصدد نص مهم جدا فيه حديث نقله ابن الداية عن أحمد بن خاقان وكان أحمد بن خاقان صديق أحمد بن طولون في شبابه

ورفيقه في رحلته الدراسية الى طرسوس . والنص المذكور هو الوحيد الذي يشير الى قدوم أحمد بن خاقان الى مصر . وذكر الكندي اسم ابن خاقان بين الذين رافقوا الخليفة المعتمد عند تركه سامرا مدعيا الخروج الى الصيد ومضرا الالتجاء الى أحمد بن طولون في مصر . ولما كان هذا الحادث متأخرا عن ظروف النص الذي نحن بصددده الآن فمن المحتمل أن أحمد بن خاقان قدم الى مصر مع أحمد بن طولون أو بعده بفترة قصيرة ، ومن المحتمل كذلك أن عودته الى سامرا ربما كانت بإشارة من أحمد بن طولون وفي مهمة سرية لاقتناع الخليفة بالالتجاء الى مصر . وعلى كل حال فلسنا نعرف مصير أحمد بن خاقان بعد أن فشل مشروع الخليفة المعتمد في ترك العراق . ولكن الراجح انه نجح في العودة الى مصر حيث اتصل به ابن الداية . أما النص الذي أشرنا اليه فيبين أن أحمد بن طولون عندما تسلم كتاب الحكومة العراقية سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) بالذهاب الى سامرا أرسل بدلا منه كاتبه الواسطي . واتخذ كاتبا له عربيا من مصر اسمه جعفر ابن عبد الغفار ، ولكن هذا الكاتب الجديد أظهر عجزا وعدم كفاية دفعا ابن خاقان الى أن ينصح الأمير بعزله وتعيين كاتب جديد . فأجاب أحمد بن طولون بأنه يتحمل بصبر عجز هذا الكاتب لأنه مصري . ولما سأله صديقه اذا كان يفضل الكتاب المصريين على كتاب العراق ، أجاب بالنفي وقال ان أنفع الأشياء لمن يحكم بلدا أن يتخذ كاتبه من الناس الذين توجد أسرتههم ومصالحهم في هذا

البلد نفسه ، ولا سيما أن الكاتب يختار أعوانه من مواطنيه وهكذا ينتفع أهل البلد . وفضلا عن ذلك فإن مثل هذا الكاتب تكون مصالحه في البلد نفسه ويزيد ذلك في ازدهارها ، بينما الكاتب العراقي في مصر لا يستطيع أن يخدم بحماس واخلاص بلدا غير وطنه الأول الذي يتجه اليه ويرغب في العودة اليه يوما من الأيام . وبالرغم من أننا نجهل تفاصيل كثيرة عن ادارة الدولة في عصر بنى طولون الا أننا نستطيع أن نستنبط مما لدينا من البيانات الحقائق التالية :

- ١ - لما كانت الاسرة الطولونية من أصل تركى فقد غلبت فيها صفات أرباب السيف على أرباب القلم .
- ٢ - كان الأمراء يدارون الفقهاء ولكنهم لم يتركوا لهم أى نفوذ مباشر .
- ٣ - كان الأمير صاحب الحول والقوة والسلطان في بداية الاسرة ولكن منذ نهاية عهد خمارويه انتقل السلطان الى القواد الترك .
- ٤ - لم يكن للعنصر العربى شأن يستحق الذكر ، لأن القضاة فقدوا سلطانهم ، ولم يكن للكتاب رأى مسموع بل كانوا في معظم الأحيان كتبة فحسب .
- ٥ - كانت العناصر السائدة في الجيش هى التركى والرومى والسودانى . وكان هناك عدد محدود من العرب .
- ٦ - كان العنصر التركى محتفظا بقسط من الوظائف الصغيرة سواء منها المالى أو الفنى .

الفصل الثالث عشر
سياسة أحمد بن طولون الاقتصادية

١ - ديوان الخراج والضرائب :

عرفنا ان أحمد بن طولون كان من الشخصيات الفذة فى التاريخ الإسلامى ، وأنه اتسم بالطسوح والعبقرية وبعد النظر والعمل والجهاد . ورأينا كيف عمل على الاستقلال بمصر ، وفى الوقت نفسه عمل على حماية هذا الاستقلال فمكن سلطانه فى برمه ، وصم اليه الاسكندرية ، وعمل على أن يجتمع فى يده الخراج حتى لا تكون يده مغلولة فى مشروعاته المختلفة . وأصبح البريد خاضعا لابن طولون بعد ان كان خاضعا للخلافة وذلك حتى لا تعرف دار الخلافة من أموره الا ما يسمح به هو . واتجه ابن طولون الى بناء جيش مصرى يدين بالولاء له وليس للخلافة ، وعمد الى تقوية الأسطول ، ولم يتوان فى القضاء على الثورات والفتن الداخلية . وامتد نفوذه الى بلاد الشام ووصل الى حدود العراق والى حدود بلاد الروم . ولم يغفل ابن طولون العناية بالنواحى الاقتصادية حتى يتم استقلال مصر سياسيا واقتصاديا وحتى يسكنها المحافظة على هذا الاستقلال وحتى يعيش ابناء مصر فى رخاء . وكان لابد لمشروعات ابن طولون المختلفة من الاموال الوفيرة . وطبيعى كانت مصر وحدها هى التى تدبر هذه الأموال الطائلة . ولهذا نرى أحمد بن طولون يعمل على مضاعفة الانتاج فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة . وكان أحمد بن طولون

يعتمد على الخراج باعتباره المورد الرئيسى لميزانية الدولة ، وفى الوقت نفسه عمد الى الكف عن الجبايات الظالمة . وكان اصلاح السكة وضرب سكة خاصة بمصر عماد الاستقلال السياسى والاقتصادى ورمزا للرخاء فى البلاد .

وكان رخاء مصر فى عصر أحمد بن طولون وابنه خمارويه مضربا للأمثال . ولاشك ان ذلك الرخاء كان ناتجا الى حد كبير عن بقاء ايراد البلاد فيها دون ان يتسرب شىء كثير منه الى الخلافة العباسية . وبعد ان اتسعت حدود مصر فشملت الشام والشعور يجدر بنا الا نفكر فى اقامة أى وزن لمساعدة من الشام أو لغنائم من الروم ، فقد كانت الحاميات الطولونية فى الشام تكلف الطولونيين نفقات طائلة كما ان الغنائم من الروم كان يستأثر بها الجند ولا تكاد خزينة الحكومة تستفيد منها شيئا . كانت الخطوة الأولى التى اتخذها أحمد بن طولون فى سبيل تدعيم الاستقلال كما ذكرنا هو أن يصبح مسيطرا على خزانة الدولة أو على خراجها ، ومن هنا كانت حربه مع ابن المدير . وكانت بداية نجاح أحمد بن طولون الحقيقى فى الاستقلال بمصر هى السنة التى استطاع فيها اقضاء ابن المدير عن الخراج . ومنذ تلك السنة أصبح ديوان الخراج فى مصر أو كما نقول الآن وزارة الخزانة ووزارة الاقتصاد خاضعا لأحمد بن طولون . ونعرف مما ذكره ابن سعيد ان ابن طولون شغل ديوان الخراج بموظفين يدينون له بالطاعة والولاء .

ولكى ندرك الدور الكبير الذى كان ينتظر احمد بن طولون فى الناحية المالية يجب أن نعرف أن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب الى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاية أو عمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئا كثيرا . ولما كانت البلاد فى عصر الولاية لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها ، وكان غرض الخلافة الأساسى هو جباية أكبر دخل ممكن ، عرفنا أنها لم تكن من الوجهة المالية الا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الانتاج ، وقد زادت الحالة سوءا فى العصر العباسى حين كثر تعيين الولاية وعزلهم فكان كل وال يعمل على اثراء نفسه فى أقصر وقت ممكن قبل أن يغادر البلاد . وظهر أيضا فى العصر العباسى وفى عهد أبى جعفر المنصور مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله ، أى أن الخليفة أراد ان يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله دون النظر الى قدرة البلاد على الدفع وظروفها المختلفة .

ولما صارت مصر تقطع للقواد الترك زاد الطين بلة لما عرف عنهم من العنف وسوء الادارة وزيادة الضرائب .

ثم تولى ابن المدبر خراج مصر وكان متعسفا فى فرض الضرائب على المسلمين والمسيحيين على السواء فزادت الضرائب على المصريين زيادة فاحشة .

وقد مر بنا الحديث عما أدخله ابن المدبر من الضرائب مثل ضرائب النطرون والصيد والمراعى ، ولعل ضريبة المصايد كانت

أثقلها على النفوس اذ كان الناس يعتبرونها غير شرعية ، ولعلمهم كانوا يعدونها مخالفة للآية الشريفة (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم) .

ويظهر أن ابن المدبر نفسه احتال في تسميتها فيذكر المقرئ في ذلك : « واما المصايد فهي ما أطعم الله سبحانه وتعالى من صيد البحر وأول من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر وصير لها ديوانا . واحتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها فأمر أن يكتب في الديوان : خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك » .

وفرض ابن المدبر فضلا عن ذلك ضرائب على أشجار اللبخ والسرو والنخيل . وكانت كل هذه الضرائب وتلك تسمى الهلالية لأنها كانت تجيء شهريا ، كما كانوا يسمونها أحيانا المرافق والمعاون . ويظهر انه كانت تتبع في مصر في ذلك العصر وسائل الشدة لجباية الخراج . ونعرف أن الليث بن الفضل والى مصر خرج الى الخليفة الرشيد في سنة ١٨٧ هـ وسأله أن يبعث معه بالجيوش لأنه لا يستطيع استخراج الخراج من أهل الحوف الا بجيش . ولكن محفوظ بن سليمان ضمن للخليفة حينذاك جباية خراجها عن آخره بلا سوط ولا عصا فؤلاء الخليفة الخراج . (١)

كذلك تبين ورقة بردية عربية من القرن الثالث الهجري مدى الشدة التي كانت تتبع في جباية الأموال ففيها أمر بأنه اذا لم يؤد

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٤٠ .

كل فرد ما عليه من الأموال يضرب عشرة سياط ويغرم في صلب
ماله دينارا (١) .

هكذا كانت السياسة المالية حين استطاع أحمد بن طولون أن
ينحى ابن المدبر وأن يشرف بنفسه على ميزانية البلاد .

ولسنا نعرف تماما كل اصلاحاته المالية ، ولكن المصادر
التاريخية تروى أن خراج البلاد قد انحط في عصر الولاة الذين
سبقوه حتى بلغ ثمانمائة ألف دينار بينما ارتفع في نهاية حكمه
حتى وصل الى أربعة ملايين وثلاثمائة ألف . فضلا عن ذلك فإن
أحمد بن طولون ترك بعد وفاته ثروة طائلة أحصاها ابن سعيد
على هذا النحو :

دينار	١٠ر٠٠٠٠ر٠٠٠
من الموالى	٧ر٠٠٠
من العلمان	٢٤ر٠٠٠
من الخيل	٧ر٠٠٠
من الجمال	٢ر٧٠٠
من البغال	٦٠٠

وكتب المؤلفون أن القمح في عصر أحمد بن طولون كان
يشترى عشرة أراذب بدينار ، وفي عصر خمارويه ثلاثة أراذب
بدينار . وكان هذا السعر الأخير يعتبر رخيصة جدا في العصور
التالية :

A. Grohmann : Arabic Papyri vol. III p. 104

(1)

ويحدثنا المؤرخون عن الغاء احمد بن طولون للضرائب
الظالمة . وأكبر ظننا أن أحمد بن طولون أحسن توزيع الضرائب .
وكانت أملاك الحكومة الخاصة تدر عليه دخلا كبيرا يفوق كل
ما كانت تدره قبل ذلك . وكان يشرف على هذه الأراضى ديوان
خاص اسمه ديوان الأملاك عهد به الى سليمان بن ثابت .

٢ - الزراعة :

عنى أحمد بن طولون بتشجيع الزراعة وتسهيل الرى ليتمكن
من استغلال الأرض والحصول على أوفر قسط من الضرائب ،
وطبيعى أن سبيله الى ذلك كان حسن العناية بالترع والقنوات
وحسن استخدام المياه للرى كما تشهد بذلك الأوراق البردية .
والحق أن أحمد بن طولون اهتم بحماية الفلاح من ظلم الجباة
وعسفهم حتى ينصرف وهو مطمئن الى زراعته . وكانت الدولة
تمد الفلاح بحاجته من الذور والآلات الزراعية . ويبدو أنها
كانت تتقاضى أثمان هذه الخدمات بعد نهاية المحصول .

وكانت النتيجة لهذه العناية بالفلاح وبالأرض وبالهئية الادارية
فضلا عن القضاء على الفتن والثورات الداخلية وعلى المفسدين ،
أن شهدت مصر نهضة زراعية كبرى . ويحدثنا المقرئى أنه
استغل فى الزراعة نحو مليون فدان فى العصر الطولونى . وكان
هذا أعظم استغلال شهدته مصر حينذاك . وتجلى هذا الرخاء
العظيم الذى توفر لابن طولون وفى الملايين التى أنفقها فى

مشروعاته والتي ادخرها لأولاده من بعده . وكانت عناية خمارويه
بالزراعة لا تقل عن عناية أبيه .

والحق أن العصر الطولوني خلا من الأزمات الاقتصادية ،
وامتاز بالرخاء وزيادة الانتاج . وكان فيضان النيل طيبا في سنى
الأسرة الطولونية اللهم الا اذا استثنينا بعض سنين من حكم
خمارويه ثم السنة الأولى والسنة السابقة للأخيرة من حكم هارون
فقد كان الفيضان فيها غير طيب وان لم يبلغ من النقصان حد
الخطر الذي كان يبلغه بعد ذلك في عصر الفواطم والماليك والذي
كانت تنتج عنه الأوبئة والقحط .

٣ - الصناعة :

لم تقتصر نهضة مصر على الناحية الزراعية ، وانما امتدت الى
الصناعة أيضا . أما الصناعات التي ازدهرت بمصر في ذلك الحين
فعلى رأسها صناعة النسيج . ومر بنا بعض الحديث عنها حيث
عرضنا لمنصب ناظر الطراز . وحسبنا الآن أن نشير الى وجود
الأقمشة الثمينة بين الهدايا التي كان يقدمها أمراء مصر،
بل ان بابوات رومة أنفسهم كانوا يحصلون من
الأسواق على تلك المنسوجات النفيسة ويقدمونها
هدايا للكنائس . وأكبر الظن أن مصانع الطراز كانت مصدر ربح
وافر للأمراء الطولونيين . وكان يحدث أن بعض المنسوجات
النفيسة المصنوعة في طراز الخاصة كانت تباع في الأسواق . فقد.

ذكر ابن الداية مثلاً أنه بعد أن عزل ابن المفضل ، الذي كان ناظراً على قصر ابن طولون ، أمر ابن طولون ببيع ملابسه وبعض أشياء كانت ملكاً له فبلغ ثمنها عشرين ألف دينار .

ومن الصناعات التي لا بد أن تكون قد نجحت في عصر بني طولون صناعة الأسلحة ، فقد كان الجيش الطولوني وافر العدد ، وكانت تلزمه بطبيعة الحال كميات كبيرة من الأسلحة . وقد أشار المؤرخ ابن الزيات في كتاب الكواكب السيارة ، إلى بناء سماه مصنع ابن طولون . وربما كان هذا البناء داراً لبعض الصناعات في عصر بني طولون .

كذلك كانت في مصر معاصر لاستخراج الزيت من السمسم وبعض الحبوب والبقول .

واشتهرت مصر بصناعة الورق من البردى الذي كان ينمو بكثرة فيها ، وخاصة في مستنقعات الدلتا والفيوم . وشهرة مصر في صناعة الورق من البردى شهرة قديمة ترجع إلى العصر الفرعوني . وطالما كان الناس يستعملون البردى للكتابة ، كانوا يعتمدون على مصر . أما في القرن الرابع الهجري فيحدثنا الثعالبي أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر ، والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأرق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند والصين . ويذكر المستشرق النمسي « كراباتشيك » أن صناعة أعداد ورق البردى للكتابة انتهت في مصر بالاجمال حوالي القرن الرابع الهجري .

وهكذا نرى ان مصر كانت طوال عصر الولاة والعصر الطولونى تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان صناع الورق ، كغيرهم من الصناع فى مصر من المصريين . كذلك كان المصريون يعصرون القصب ليصنعوا منه السكر ، ونعرف ذلك مما جاء فى الأوراق البردية
واذا تذكرنا الجهاز الفاخر الذى أعده خسارويه لابنته قطر الندى رجحنا أن من الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية صناعة الحلى والأثاث الثمين والتحف المصنوعة من المعادن النفيسة ومن الجلد .

ومن الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية صناعة الخشب . وقد مهر المصريون منذ عهد الفراعنة فى صناعة الخشب بالرغم من قلة الأخشاب فى مصر وأن ما يوجد بها من الشجر لا يصلح خشبه الا لأعمال التجارة البسيطة ، مثل شجر الجميز والسنت والزيتون والسرو . وكان المصريون منذ العصور القديمة يستوردون من البلاد المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرز والصنوبر والأبنوس والساج ، وغيرها من أنواع الخشب المتين وساعد جفاف الجو على بقاء الخشب فى حالة جيدة . وظلت لمصر السيادة فى الحفر على الخشب وصناعته ، حتى القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى .

واذا صح ما ذكره المقرئى فقد كانت فى القسطنطينية فى العصر الطولونى أسواق خشب كبيرة . وقد بلغ النجارون والفنانون فى

الحفر على الخشب مهارة عظيمة تشهد بها التحف الخشبية التي ترجع الى هذا العصر .

ومن الصناعات التي ازدهرت في مصر الطولونية ، صناعة الخزف . وأكبر الظن أن أحمد بن طولون أدخل في البلاد - نقلا عن سامرا - الخزف ذا البريق المعدنى الذى اشتهرت بصناعته مصر بعد ذلك ولا سيما في عصر الفاطميين .

ولسنا نعرف كيف كانت تنظم هيئات الصناع في العصر الطولونى . واذا صح لنا أن نفرض أن النظام المعروف في العصور المتأخرة كانت نواته موجودة في العصر الطولونى ، جاز أن نظن أن كل طائفة من الصناع كانت لها شبه نقابة أو جماعة يرأسها عريف أو شيخ .

٤ - التجارة :

استتبع النهضة الزراعية والصناعية ، نهضة تجارية عظيمة . وساعد على تلك النهضة أيضا موقع مصر الممتاز بين قارات افريقية وأوربية وآسية . وقد ظهرت قبة موقع مصر الجغرافى العالمى منذ عهد الاسكندر الاكبر المقدونى ، أى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة .

وظلت مصر منذ عهد الاسكندر الأكبر تتمتع بهذا المركز الممتاز العالمى ، فلم تكتف بتصدير مايزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات ، واستيراد ماتحتاج اليه البلاد ، بل كانت

تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب ، فكانت مخزنا للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية الى الأسواق الغربية وبالعكس .

وكان أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب ، وقبل استكشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى القرن التاسع الهجرى والخامس عشر الميلادى ، هو طريق البحر الأحمر ، اذ كان هذا الطريق يقلل ، الى أدنى حد ممكن ، المتصاعب والنققات الطائلة التى يسببها النقل البرى . فاذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائما طريق البحر وتتبع الطريق المباشر ، أى أقصر الطرق للوصول الى موانئ ايطاليا وفرنسا واسبانيا . وكانت السفن ترسو فى الموانئ المصرية الواقعة غربى البحر الأحمر . ومن هذه الموانئ تسير قوافل التجارة الى النيل عن طريق الصحراء الشرقية ثم تتخذ طريق النيل الى الاسكندرية ومنها تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر المتوسط . واحيانا كانت السفن التجارية تواصل السير فى البحر الأحمر الى القلزم (السويس الحالية) ومنها تسير فى القناة النيلية التى تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات ثم تصل عن طريق النيل الى الاسكندرية .

واهتم الفراعنة بحفر القناة التى كانت تصل بين البحر الأحمر والنيل ، واعاد حفرها البطالسة والرومان ، ولما جاء عمرو بن

العاص الى مصر أعاد حفرها وسميت خليج أمير المؤمنين . وقيل أيضا أن عمرو بن العاص فكر في حفر قناة توصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر رأسا - وكذلك فكر الخليفة هرون الرشيد في ذلك ولكن هذه الفكرة لم تتم الا في العصر الحديث حين حفرت قناة السويس .

وبالرغم من أن إهمال خليج أمير المؤمنين جعله غير صالح لملاحة السفن في أوائل العصر العباسي ، الا أن هذا الطريق ظل يسلكه التجار . وقد اهتم العاملون من حكام مصر في العصور المختلفة بالسيطرة على الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسي والاقتصادي وليجعلوا مصر الطريق الرئيسي لمرور التجارة . وكثيرا ما دفعهم هذا الى الاستيلاء على الشام للسيطرة على طريقيهما التجارية ولتأمين الحدود المصرية . ونحن نعرف أن أحمد بن طولون حين استقل بمصر اتجه ببصره الى الشام كي يدعم استقلاله السياسي والاقتصادي . وليس من شك في أن جهود أحمد بن طولون في الأمن والاصلاحات والتعمير مما ساعد على تعزيز مكانة مصر التجارية .

وكانت هناك طرق تجارية بين مصر والواحات الغربية والمغرب وبين مصر واثيوبيا وأواسط افريقية .

وقد فطن المؤرخون المسلمون الى ذلك الموقع الممتاز الذي تتمتع به مصر ، فكتبوا أن من فضائل مصر . « انها فرصة الدنيا بحمل من خيرها الى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل الى

الحرمين والى جدة والى عمان والى الهند والى الصين وصنعاء وعدن^(١)
والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما
فرضة بلد الروم واقاصى الافرنجة وقبرص وسائر سواجل الشام
والثغور الى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش
وصقلية وبلد الروم والمغرب كله الى طنجة ومغرب الشمس ، ومن
جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبعة والحبشة والحجاز واليمن^(٢)
ومما يدل على نشاط مصر التجارى فى أواخر القرن الثالث
الهجرى (التاسع الميلادى) نص كتبه الجغرافى المشهور ابن
خرداذبة^(٣) عن التجارة. فقد تحدث عن التجار اليهود والراذانية^(٤)
الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية
والصقلية . وذكر انهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب
الى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري
والعلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف ،
ويركبون من فرنجة^(٥) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما^(٥)

(١) انظر : النوبرى : نهاية الارب فى فنون الادب . ج ١ ص ٣٤١ طبعة
دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م .

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ - ١٥٤ « ليدن ١٨٨٩ »
الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٧ - ٨
« القاهرة ١٩٤٥ »

(٣) نسبة الى نهر الرون .

(٤) يقصد بفرنجة فرنسا .

(٥) مدينة يلوزيوم القديمة او طينة الحالى وهى الى الشرق من بوسعيدة
على البحر المتوسط وكان ينتهى عندهما الفرع الثالث الذى كان للدلتا والذى
كان يعرف باسم الفرع البلوزى .

ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا (١) ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الجار وجدة (٢) ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ، ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون في البحر الغربى ، وربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية ثم يركبون في الفرات الى بغداد ، ثم يركبون في دجلة الى الأبله (٣) ومن الأبله الى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض .

ونص ابن خرداذبة لا يقتصر على بيان أهمية مركز مصر التجارى وانما يبين أن طريق القلزم (السويس الحالية) والفرما (شرقى بورسعيد الحالية) كان من أهم حلقات الاتصال بين الشرق والغرب .

(١) الفرسخ ثلاثة اميال .

(٢) الجار كانت ميناء المدينة المنورة ، أما جدة فهي ميناء مكة .

(٣) الأبله ميناء قديم انشئت مدينة البصرة بالقرب منه .

ولدينا نص متأخر عن ذلك كتبه المسعودي (١) فى القرن الرابع الهجرى وهو يبين أهمية ذلك الطريق التجارى أيضا . فيقول ان مصر « هى البرزخ بين البحرين المذكورين فى القرآن (٢) لأن من الفرما التى على ساحل بحر الروم الى القلزم التى هى ساحل بحر الصين مسيرة ليلة ، يحمل اليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرية من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المأكول والمشروب والملابس ، فجميع البلدان تحمل اليها وتفرغ فيها » .

وعلى أية حال فان النصوص التاريخية المختلفة تبين أهمية طريق القلزم — الفرما فى التجارة العالمية بعد أن سد خليج أمير المؤمنين الذى كان يصل بين القلزم ونهر النيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات .

وكان نهر النيل والترع أداة طيبة للملاحة النهرية تنقل بوساطتها البضائع بين بلدان مصر كما تنقل الى دمياط والاسكندرية حيث يحصل التجار الغربيون على ما يحتاجون اليه . ويظهر أذ مصر كان لها أسطول تجارى لا يستهان به .

ومن الوثائق التى تدل على ذلك كتاب على ورقة بردية محفوظة الآن فى مجموعة رينر بالمكتبة الأهلية فى فينا . وترجع هذه الوثيقة

(١) التنبيه والإشراف ص ٢٠ • ليدن ١٨٩٢ - ١٨٩٤ م •

(٢) يشير بذلك الى قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان) سورة الرحمن آية ١٩ - ٢٠ •

البردية الى القرن الثاني أو الثالث الهجرى (الثامن أو التاسع
الميلادى) وفيها حديث عن بضائع وتجارة وعن قدوم أربعين سفينة
تجارية من انطاكية . (١) وحسبنا أن نقرأ ما كتبه المقرئى عن القطائع
لنتبين ما كان من الرخاء بالبلاد فى عصر ابن طولون وخسارويه .
وخير دليل على ازدهار التجارة ما نعرفه عن وجود الأسواق الكبيرة
حيث كان لكل طائفة موضع معين كذلك ذكر المقرئى أن كل
طائفة من التجار كان لها سوق كبير فذكر فى كتابه الخطط «ولكل
من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر
وأحسن من الشام» .

(١) انظر Zaky M. Hasslon Les Tuli p. 239

وما ذكره من مراجع

الفصل الرابع عشر
دراسات في المجمع المصري على عهد أحمد بن طولون

١ - القبط :

امتاز العصر الاسلامى فى مصر - ولاسيما قبل قدوم أحمد ابن طولون - بحركة واسعة مستمرة تتطور بالبلاد الى التعريب وسيادة الدين الاسلامى . وقد كانت هذه الحركة قوية فعالة وصلت الى الذروة فى عصر العباسيين فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ، ولكنها لم تنقطع بعد ذلك بل استمرت حتى عصر المماليك فى مصر فى القرن الثامن الهجرى والرابع عشر الميلادى وظاهرة تمصير العرب ، وتعريب مصر وانتشار الاسلام فيها هى أهم الظواهر التاريخية فى مصر الاسلامية (١) ونلاحظ أن تعريب مصر وانتشار الاسلام فيها ليسا مترادفين . وطبيعى أن ما يذهب اليه بعض الباحثين ولاسيما المستشرقين من المبالغة فى تقدير الاضطهاد الدينى الذى حل بالقبط أمر غير صحيح فالثابت أن الخلفاء تركوا للمسيحيين حرية دينية كبيرة .

ويؤكد ساويرس مؤرخ البطارقة أن الحكومة الاسلامية لم تتدخل فى الشغائر الدينية عند أهل الذمة، بل كان بعض الأمراء والخلفاء يحضر مواكبهم وأعيادهم . أما أبناء مصر من المسلمين

(١) اقرأ هذا الموضوع فى بحث علمى مستفيض فى : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ١٨٢ - ٢٦٢ ، سيدة كاشف : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية وأهميته لدراسة التاريخ القومى « مجلة الجمعية التاريخية المصرية » .

فكانوا لا يجدون غضاضة في الاشتراك مع الأقباط في تلك الاحتفالات .

كذلك بين لنا ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيرا من الوظائف في العصر الاسلامي ، وخاصة الوظائف المالية . ويورد ساويرس في مناسبات مختلفة أسماء كثير من كبار الموظفين الأقباط . كذلك لم يعرف عن حكام مصر أنهم عارضوا في تعيين أحد البطارقة بعد أن يتم انتخابه بواسطة الأساقفة الا اذا اختلفت الأساقفة فيما بينهم . ويؤكد مؤرخ البطارقة أن الدين لم يفرق بين المصريين في الشعور بأنهم أبناء وطن واحد . أما عن انتشار الاسلام في مصر منذ أواخر عصر الولاة ، أي قبل قيام الدولة الطولونية ، فيتضح لنا مما كتبه ساويرس أن العامل المالي من أهم العوامل التي حولت أغلبية الأقباط الى الدين الاسلامي ، وطبيعي اننا لا نشك في كتابات ساويرس في هذا الصدد ، إذ أن ساويرس لم يكن ليغفل الكلام على أي اضطهاد يصيب الأقباط لتحويلهم الى الدين الاسلامي بالقسوة .

والواقع أننا لانجد مؤرخا غير ساويرس يفسر لنا السبب الذي حمل أغلبية القبط على التحول الى الدين الاسلامي . فساويرس يؤكد دائما أن الهروب من الجزية ومن الضرائب كان أكبر عامل على انتشار الاسلام في مصر . وهو يزن دائما الولاة والأمراء بالميزان المالي ، ولهذا نرى مؤرخ البطارقة قد يحكم على أمير أو خليفة واحد حكمين على طرفي نقيض ، لأن هذا الأمير قد يكون

رحيما بأهل الذمة وقت من الأوقات ، وقد يشتد في جمع الضرائب
والجزية في وقت آخر ، ومثل ذلك كلامه على الخليفة عمر بن
عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك ، والخليفة المتوكل على الله
العباسي ، وأمير مصر أحمد بن طولون .

وهكذا كان الاسلام دين الأغلبية العظمى في مصر ، حين
أسس أحمد بن طولون أسرته فيها ، وإن كان اعتناق كثيرين منهم
الدين الجديد ، لم يكن في بداية الأمر عن اخلاص وحسن فهم
ودراية .

والمعروف أن والي مصر عبد الله بن عبد الملك أمر ببدء تعريب
الدواوين فيها منذ سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ - ٧٠٦ م) على أن أهم
عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية في الريف المصري
واستقرارها على جانبي الشريط الخصب بوادي النيل وفي الدلتا
مما أدى الى اختلاطهم بانقبط اختلاطا كبيرا ، ومن ثم الى انتشار
اللغة العربية في مصر والى تعريب البلاد . وبدون هذا الاختلاط
لا يمكننا أن نفسر كيف ترك الفلاح المصري القديم لغته رغم تمسكه
بالقديم وحرصه عليه . ونحن نعرف أن اللغة اليونانية كانت لغة
مصر الرسمية منذ العهد البطليموسي الى الفتح العربي لها وكانت
اللغة التركية لغة مصر الرسمية في العهد العثماني ولكن هذا لم
يجعلهما لغة الشعب المصري ، فقد عاش اليوناني وعاش الأتراك في
بيئات خاصة في مصر ولم يختلطوا ولم يتغلغلوا في الشعب المصري .

وبينما نرى أن الدين الاسلامى أصبح دين الأغلبية العظمى فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى ، نرى أن تعريبها تم فى القرن الرابع الهجرى وأصبح رجال الدين الأقباط منذ ذلك القرن يكتبون باللغة العربية ويخاطبون أبناء دينهم بها بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم .

ولدينا وثيقة بردية مؤرخة بسنة ٢٧٢ هـ ورد فيها مانصه :
« اقرار دانيال بجميع ما فى هذا الكتاب بعد أن قرىء عليه حرفا حرفا فأقر بفهمها ومعرفته بما فيه » (١) .

ولدينا وثائق بردية كثيرة فى القرن الثالث الهجرى مكتوبة باللغة العربية وهى عبارة عن عقود زواج أو بيع أو شراء وغير ذلك من سائر المعاملات الخاصة بالمصريين .

وكان عدد القبط لا يزال وافرا بمصر فى العصر الطولونى . والظاهر انهم كانوا ينعمون بعطف لم يتمتعوا به قبله بزمان طويل وانهم استطاعوا أن يستغلوا حسن ادارة أحمد بن طولون وخمارويه ، وميلهما الى كسب رأى العام فى البلاد ، ليكون ذلك قوة يرتكزون عليها فى نضالهم مع حكومة العراق .

ومهما يكن من الأمر فإن عندنا بعض نصوص تشهد بتسامح أحمد بن طولون وابنه خمارويه مع القبط . واذا صح ما ذكره ابن

(١) جرومان : اوراق البردى العربية ج ١ ص ١٢٠

الداية فان ابن طولون عنى بدير القصير حيث كانت له صداقة مع راهب اسمه ابواندونه Antoine والظاهر أنه شمل هذا الدير برعايته منذ بداية حكمه لأن النص الموجود فى ابن الداية يشير الى ان ابن المدير شدد على زهبان هذا الدير فى دفع الجزية، فشكوا الى أحمد بن طولون وأعطاهم الأمير كتابا الى ابن المدير باعفائهم منها ، ولكنه نبه عليهم الا يستخدموا الكتاب المذكور كسيف يضرب به وانما يظهروا الخضوع ويبلغوا أمر الكتاب الى ابن المدير فى هدوء قبل أن يواجهوه به .

وقد ذكر الذهبى والعينى وابو المحاسن نصا يثبت عطف أحمد ابن طولون على المسيحيين فى دمشق عندما نشب الحريق بقرب كنيسة العذراء .

والحق أننا نعرف من المصادر التاريخية المختلفة ومما ذكره ساويرس أن الوفاق كان سائدا بين المسلمين والأقباط فى مصر الطولونية .

٢ - اليهود :

يظهر أن مضر كان بها فى العصر الطولونى جالية يهودية مهمة ومن الراجح أن أفرادها كانوا من الأغنياء وذوى الأعمال الراجعة كما يتجلى من المناسبات التى يرد فيها ذكرهم فى المقرئى وابى المحاسن وغيرهما من المؤرخين المصريين . ونعرف مثلا أن البطرك ميخائيل الثالث باعهم احدى الكنائس وبعض الأراضى الموقوفة

ليجمع جزءا من الغرامة التي ألزم بدفعها الى خزانة أحمد بن طولون. كذلك نجد ذكرهم مقرونا بالمسيحيين في مناسبتين : الأولى عندما هدم أحمد بن طولون قبور الطائفتين ليشيد على انقاضها قصره في الموضوع الذي يشغله الآن ميدان قره ميدان والمسافة الواقعة في امتداده الى جامع السلطان حسن . أما المناسبة الثانية فهي مناسبة اشتراك اليهود مع المسيحيين في الصعود الى جبل المقطم ليصلوا الى الله ويدعوا بالشفاء للامير أحمد بن طولون في مرضه الأخير .

ولسنا نعرف اذا كان لليهود أى شأن فى الادارة الطولونية ، كما لا نعرف أساليب معيشتهم ، وموقف الطوائف الأخرى ازاءهم ، ولكننا نرجح أنهم كانوا هادئين ، ولم يعكر صفوهم أحد . ولسنا نعرف نصوصا تشير الى اشتغال اليهود بالربا . فان النصوص التى وصلتنا فى المكافأة لابن الداية تدل على أن الذين كانوا يفعلون ذلك - أو على الأقل جزءا كبيرا منهم - كانوا من المسلمين .

وقد جاء فى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ذكر طبيب يهودى من أصل مصرى واسمه اسحق بن سليمان ، ترك وادى النيل سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٦م) وسافر الى افريقية حيث اتصل بالأمير الأغلبى زيادة الله الثالث ، ثم استقر فى القيروان وتلمذ على الطبيب المشهور اسحق بن عمران . ثم توفى فى حكم الأمير الفاطمى عبيد الله المهدي بعد أن عمر أكثر من مائة عام وأكبر

الظن أن اسحق بن سليمان هذا عاش في عصر بني طولون . ولكننا
لا نعرف شيئاً عن حياته في مصر أو علاقته ببني طولون .

٣ - المسلمون :

يتكون السكان المسلمون في وادي النيل من نسل الجنود
العرب أو الموالي الذين وفدوا الى مصر على دفعات ثم استقروا فيها
ومن افراد القبائل العربية التي هاجرت الى وادي النيل طلباً للرزق
في أراضي الخصبة ، ثم من القبط واليهود الذين اعتنقوا الدين
الاسلامى .

وقد قدر المستشرق الفرنسى الاستاذ ماسينيون أن بين سكان
مصر الحاليين ٨٨ فى المائة من الأسرات القبطية القديمة اعتنق
تسعة أعشارها الاسلام ، بينما ٦ فى المائة من سكان مصر عرب
خلص و ٢ فى المائة من قبائل بربرية مستعربة قدمت مع الفاطميين
من شمال افريقية فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .
والمعروف أنه حتى فى العصر الطولونى كانت هناك بطون
من البربر قد استقرت غربى الدلتا . وكان معظم أنصار ربيعة بن
أحمد بن طولون فى ثورته على هارون بن خمارويه ، من أولئك
البربر .

والذى لا شك فيه هو أن العرب فقدوا فى مصر تدريجياً
صفاتهم الحربية وتفرقوا بين السكان فى ريف مصر . وقد قيل ان
بلاد الفراعنه فيها دائماً قوة امتصاص تتمثل الأمم التى تفتحها . فلا

غربة ان مزجت تلك القوة بين القبط الوطنيين وأبناء العرب الفاتحين . ولم يلبث أن جرى دم العرب فى عروق القبط الذين اعتنقوا الاسلام وبالعكس . وعلى كل حال فان الأغلبية العديدة كانت دائما لشعب مصر ولم يأت اليها عنصر أجنبى يفوقها عددا وكثرة بحيث يستطيع امتصاص الدماء المصرية وانما الذى كان يحدث هو العكس فالمصريون كانوا هم الذين يتمثلون جميع الشعوب الوافدة الى مصر .

وقد مر بنا الكلام على جيش الدولة الطولونية وعناية الأمراء به ، وذكرنا أن هذا الجيش كان يتألف من جنود مرتزقة من الترك والسود وغيرهم ، ولم يكن فيه لأهل مصر أنفسهم نصيب كبير . ومهما يكن من الأمر فان الأغلبية العظمى من سكان مصر فى العصر الطولونى كانت من المسلمين ، وكان اهتمامهم قليلا بالأمور الحكومية اللهم الا الضرائب . وكان بعض العرب منهم يحتفظون بالانتساب الى قبائلهم ولكن هذه الأنساب أخذت تفقد أهميتها بالتدريج . وقد رأينا فى معظم شواهد القبور التى اكتشفت حديثا فى مقابر أسوان والفسطاط ان اسم المتوفى يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة ، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة حل محلها اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى فيكتب فلان الكوفى أو المصرى الخ (١) .

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ٢٥٨ وما ذكره من مراجع .

ولم يكن هناك بعد قرار الخليفة المعتصم الذي أخرج العرب من ديوان الجيش في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ما يحسد عليه العرب الذين كانوا من نسل الفاتحين . اذ أنه بعدما فقد العرب مركزهم السامي في الدولة الاسلامية ، اضطروا الى الانتشار في ريف مصر والاختلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال التي كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها .

ولن يفوتنا أن نشير الى موقف أحمد بن طولون ازاء العلويين فان هذا الأمير كان يضطهدهم ويقمع ثوراتهم . ولا نظن أنه كان مدفوعا الى ذلك بعامل ديني وانما نرجح أنه كان يريد القضاء عليهم بوصفهم عنصرا من عناصر الفوضى . والمعروف كذلك أن أحمد بن طولون سجن يوسف بن ابراهيم (والد المؤلف ابن الداية) لأنه كان على صلة بالعلويين في بغداد .

٤ - القضاء والمظالم والحسبة :

كان المذهبان المالكي والشافعي أكثر المذاهب الاسلامية انتشارا بين سكان مصر . أما اتباع المذهب الحنفي فكان عددهم قليلا . ولسنا نستطيع أن نؤكد أن بني طولون كانت لهم سياسة معينة تجاه أى مذهب من هذه المذاهب الثلاثة . بل الظاهر أنهم لم يعنوا الا قليلا جدا بمثل هذه الأمور التفصيلية . ونحن نعرف أن أحمد بن طولون نفسه درس على مذهب أبي حنيفة في طرسوس

وأن القاضي بكار بن قتيبة الذي كان دعامة الحياة الدينية في عصر أحمد بن طولون كان حنفى المذهب ، ولكن علينا أن لا ننسى أن أحمد بن طولون وجده في منصب القضاء عندما قدم الى مصر ، وأن القاضي بكارا لا يدين بمنصبه الى أحمد بن طولون . وقد خلف بكارا في منصب القضاء محمد بن عبدة بن حرب وكان حنفيا أيضا وقد تولى في سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١م) في عصر خمارويه . ثم خلفه أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقى في عهد هارون سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧م) وكان أول قاض شافعى في مصر .

ونحن نعرف العمل الخطير الشأن الذى كان يتولاه القضاة فى الاقاليم الاسلامية ، ولا سيما فى عاصمة كل منها ، فقد كان لهم نفوذ عظيم على الشعب ، وسلطان أدبى لا يستهان به وذلك فضلا عن أعمالهم العادية فى محاكمة المذنبين وفض المنازعات ، وإقامة الحدود الدينية ، والسهر على تنفيذ الشريعة الاسلامية وما الى ذلك مما ورد فى كتب الفقه .

وكان القضاة ينتخبون عادة من بين أعلام الفقهاء واتيائهم وذوى النزاهة منهم . وكانت اختصاصاتهم واسعة ومتعددة ولكنها كانت كاختصاصات سائر الموظفين غير محدودة . ولا ريب أن القاضي كان لا يتسع نفوذه وسلطانه اذا كان الأمير قويا وحكومته رشيدة تسهر على تسيير شئون البلاد بنشاط ودقة .

وهكذا يجب علينا الا نبالغ فى تقدير ما كان لقضاة مصر من شأن فى عصر بنى طولون . وقد جاء فى كتاب ابن حجر العسقلانى

عن قضاة مصر أن أحمد بن طولون « داوم النظر فى المظالم حتى استغنى الناس من الشرطتين عن القاضى حتى كان بكار ربما نعر فى محله واتكأ ثم انصرف الى منزله ولم يتقدم اليه اثنان » .

ونذكر فى هذه المناسبة أن مثل هذا التعطل حدث بعد ذلك فى عصر كافور الاخشيدى للقاضى ابى الطاهر الدهلى . وعلى كل حال فانه يجوز أن يكون تدخل أحمد بن طولون فى شئون القضاء وتعطيله بكارا سببا من أسباب سوء التفاهم الذى قام بعد ذلك بينهما .

ولكننا لا يجب أن نستنتج من ذلك أن بنى طولون - ولا سيما أحمد - كانوا لا يعنون باحترام الدين ، فان الحق يخالف ذلك تماما وكان الطولونيون يعملون فى معظم الأحيان على مداراة الفقهاء ، وحسبنا أن أحمد بن طولون نفسه لم يستغن عن تعضيدهم فجمع منهم مجلسا فى دمشق لعزل الموفق واعلان الجهاد ضده لانتقاد الخليفة .

وفضلا عن ذلك فان أحمد بن طولون نفسه على الرغم من تعطيله بكارا وتدخله فى شئون عمله كان يذهب لسماع دروسه فى الحديث استرضاء له . وعلينا أن نذكر فى هذه المناسبة أن أمراء بنى طولون لم يكن لهم ما كان لبنى العباس من نفوذ دينى أو نسب شريف يستطيعون بهما أن يفرضوا أنفسهم على المسلمين فرضا .

وصفوة القول أن أحمد بن طولون جرد بكارا من كثير من

اختصاصاته ولكنه ظل على رغم ذلك يداريه . ولكنه وصل الى
نتيجة سلبية وأدرك انه لن يستطيع أن يجعل هذا القاضى عبدا
لعرشه فعزله وعطل منصبه نهائيا .

وجدير بالذكر أن القضاء فى الدولة الاسلامية كان من الأمور
الخاصة بالخلافة . فكان الخليفة هو الذى يعين القاضى فى مصر
منذ فتحها العرب الى العصر الطولونى . وفى بعض الأحيان كان
والى مصر يعين القاضى ثم يقره الخليفة على ذلك . ولما قدم أحمد
ابن طولون الى مصر وجد بكار بن قتيبة قاضيا فيها منذ أرسله
الخليفة المتوكل سنة ٢٤٦ هـ فاستمر على القضاء . وحين طالبه
أحمد بن طولون بلعن الموفق على المنابر وامتنع بكار عن ذلك عزله
أحمد بن طولون وسجنه فى سنة ٢٧٠ هـ .

ويظهر أن أحمد بن طولون فعل ذلك بموافقة الخليفة . ويقال
أن أحمد بن طولون أرسل انى بكار مرة وهو فى السجن يقول:
« كيف رأيت المغلوب المقهر لا أمر له ولا نهى ولا تصرف فى
نفسه ! . ولا تزال هكذا حتى يرد على كتاب المعتمد بإطلاقك » (١)
وهكذا نرى أنه بالرغم من استقلال مصر الذاتى فى عهد
الطولونيين ، فإن أمر القضاء كان لا يزال مرجعه الى الخلافة . وقد
توفى بكار بعد وفاة أحمد بن طولون بعدة أيام ، وذلك فى سنة
٢٧٠ وكان ابن طولون قد أطلقه من سجنه قبيل وفاته . وخلفه فى
القيام بأعمال القضاء ابن شاذان الجوهري نحو ثلاث سنين دون

(١) الكندى : الولاة والقضاة . ص ٥١٢ - ٥١٤ .

أن يكون له لقب القاضى . ثم عين خمارويه محمد بن عبدة للنظر فى المظالم ، وكان له اختصاص القاضى . وظل محمد بن عبدة بن حرب ينظر فى المظالم نحو أربع سنين ثم ولى القضاء فى سنة ٢٧٨ هـ من قبل الخليفة المعتمد ، وذلك بعد أن تعطّل منصب القضاء نحو سبع سنين .

وقام ابن عبدة بمنصب القضاء حتى قتل خمارويه وخلع ابنه جيش وقتل فى سنة ٢٨٣ هـ ، وحينئذ اختفى ابن عبدة ولم يظهر فى الحياة العامة الا بعد سقوط بنى طولون . وظلت مصر بغير قاض الى أن ولى هارون بن خمارويه أبا زرعة محمد بن عثمان الدمشقى القضاء فى سنة ٢٨٤ هـ . ويقال ان الذى ولاه هو الخليفة المعتضد .

ولما سقطت الدولة الطولونية اتصل محمد بن عبدة بالقائد محمد بن سليمان فولاه القضاء والمظالم فى ربيع الأول من سنة ٢٩٢ هـ .

ونظرا لمكانة القضاة الأدبية والاجتماعية فقد كانوا فى معظم الأحيان وسطاء فى الخير والاصلاح . ومر بنا أن أحمد بن يواون أرسل بكارا فى الوفد الذى بعثه لردع ابنه العباس وهديه الى سواء السبيل ، ولكن الظاهر أن بكارا لم يبذل فى سبيل نجاح هذه المهمة جهدا مشكورا . ولكن من الخطأ أن تهمه — كما يفعل الأستاذ جيب — بأنه كان يعضد سرا ثورة العباس .

وكان فى مصر الطولونية — كغيرها من أنحاء العالم الاسلامى —

ما يذمونه النظر في المظالم . ويعد الناظر فيها أشبه شيء بمحكمة الاستئناف ومحكمة النقض ومجلس الدولة في عصرنا الحالي . ونلاحظ أن الواقع في مصر الإسلامية يخالف ماتكتبه المراجع النظرية في هذا الشأن . فإن اختصاص الناظر في المظالم كان غير محدود ، فكان دون اختصاص القاضي في بعض الأحيان وفوقه في أحيان أخرى . وقد كتب المستشرق « فون درهايدن » أن منصب الناظر في المظالم كان أول مناصب الدولة ، لأن صاحبه كان يراقب سائر الموظفين ، وبذلك كان يشبه بمفرده كل ماتقريبه الأمم الحديثة من مجالس ولجان لضمان العدالة ومحاربة الاوتقراطية . ولكننا نرى أن هذا القول مبالغ فيه ، ولا ريب في أن أساسه ماجاء في الأحكام السلطانية للماوردي عن الناظر في المظالم . والحق أن هذه الاختصاصات كانت نظرية الى حد كبير . وسلطان الناظر في المظالم لم يكن واسعا الا حين كان هو الخليفة أو الأمير أو من يقرب من مرتبتهما ، أو من كان مؤيدا من الأمير حائزا لثقتة التامة وفضلا عن ذلك فإن اختصاص الناظر في المظالم واختصاص القاضي كانا يلتقيان في كثير من الأحيان وكان يصعب أحيانا أن تتبصر أيهما أوسع سلطانا . وفي معظم الأحيان كان المرجع النهائي للبت في المظالم الخطيرة الشأن هو الخليفة أو الأمير نفسه .

بقى أن نتحدث عن المحتسب . ولسنا نريد هنا أن نفصل الكلام على اختصاصاته كما تبينها المراجع الفقهية والتاريخية . وحسبنا أن نذكر أنه كان يراقب مراعاة أحكام الشرع ويسهر على حسن

السلوك العام ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويشرف على نظام الأسواق والطرق وعلى الباعة والعمال ، ويعمل بوجه عام على حماية الناس من غش التجار والصناع .
والظاهر أنه لم يكن فى عصر بنى طولون موظف خاص بأعمال الحسبة .

٥ - الأمن العام :

ليس لدينا نصوص 'كافية عن الأمن العام فى العصر الطولونى وأكبر الظن أن الأمن والهدوء لم يسودا دائما فى أنحاء البلاد ، وشعر أحمد بن طولون منذ البداية بضرورة تطهير البلاد من اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين الذين كانوا يعكرون صفو السكان الهادئين ولاسيما فى الريف . ولا ريب فى أن قسوته فى هذا السيل وكثرة المجرمين الذين ماتوا فى سجونهم ، ثم القصص التى رواها ابن الداية ، كل هذا يشهد بأن الأمن لم يكن دائما مستتباً فى البلاد . ولسنا نريد بذلك أن نبخس من حقه ولا نقدر الجهود التى بذلها ، فالواقع أننا لانستطيع أن نقارن الفوضى التى عمت البلاد قبل مجيئه بالهدوء النسبى الذى نجح فى الوصول اليه ولاسيما فى العاصمة (١) .

ويحدثنا ابن الداية فى كتابه المكافأة عن بعض رجال من كورة اهناس اشتبه فى أنهم لصوص فسجنوا ثم أطلق سراحهم . وحدث

بعد ذلك بقليل ان ظهرت فى كورتى اهناس والبهنسا عصابة من قطاع الطرق واللصوص خربت القرى وعاثت فيها فسادا واصبح لها الأمر والنهى . واضطر صاحب الكورة فى سبيل التخلص من هذه العصابة أن يتخذ أفرادها عمالا للشرطة مما يدل على أنه لم يجد وسيلة أخرى لمنعهم من مهاجمة الضياع ونهب المسافرين .

ومن المجرمين الذين عرفوا فى ذلك العصر المبنجون والخناقون وكانوا يستخدمون البنج ونبات الخناق فى تخدير الناس ليسلبوهم ما يريدون .

والظاهر أن معظم أولئك اللصوص وقطاع الطرق كانوا من العرب البدو ، بينما كان فريق آخر من العرب يكسب عيشه بمرافقة المسافرين وحمايتهم . وكثيرا ما كان المجرمون وقطاع الطرق من العرب يحجمون عن مهاجمة المسافرين الذين يحرسهم عرب آخرون .

وفضلا عن ذلك فقد كان الجند الطولونيون واتباع الأمراء يستبدون بسواد الشعب فى بعض الأحيان ، كما يتجلى من قصة ذكرها ابن الداية فى ترجمة أحمد بن طولون وملخصها أن الأمير كان يعبر النيل ذات مرة فأبصر بصياد فقير ومعه ولد يسمى بك بطرف الشبكة وملابس كل منهما لا تكاد تغطى بدنه . فأشفق أحمد ابن طولون عليهما وأمر نسيم الخادم بإعطائهما عشرين دينارا ففعل . ولما رجع أحمد بن طولون ومر بالمكان نفسه وجد الصبي

يبكى وأمامه جثة الصياد ممددا على الأرض ، فظن ابن طولون لأول وهلة ان جنديا من جنوده السود قتل الصياد ليستولى على الدنانير . وظهر أن الحقيقة غير ذلك وان الصياد مات بالسكته عند رؤية مثل ذلك المبلغ من المال . ولكن الذى يعنينا فى هذا المقام ما تبادر الى ذهن الأمير مما يدل على أن الجند لم يكونوا دائما مثال النظام فى معاملتهم الشعب .

٦ - بعض مظاهر الحياة الاجتماعية :

كان الشعب فى مصر الطولونية يحتفل بأعياد المسلمين وأعياد النصارى فضلا عن المناسبات التى تحتفل فيها الأسرات بأعيادها الخاصة .

والراجع أن وفاء النيل كان يحتفل به فى العصر الطولونى فقد جرت مصر منذ العصور القديمة على الاحتفال بتلك المناسبة.

وقد أشار أبو المحاسن ابن تغرى بردى ، الذى عاش فى عصر المماليك ، الى عظمة الأعياد آنذاك ، وذلك عندما تحدث عن حلبة السباق فى عهد خمارويه وقال انها كانت تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلاح وان الناس كانوا يجلسون لرؤية ذلك كما يجلسون فى الأعياد . وعلق على ذلك بقوله : « والتشبيه أيضا بتلك الأعياد لا بأعياد زماننا هذا فان أعيادنا الآن كالمآتم بالنسبة لتلك الأعياد السالفة »

وذكر المقرئى نقلا عن القضاء ان الفسطاط كان فيها الف ومائة وسبعون حماما . ونقل عن ابن المتسوج انه كان فى شرقى الفسطاط حمام من بناء الروم ، كان عامرا زمن أحمد بن طولون وابنه خمارويه ، وقيل كان فيه سبعون من العمال فى خدمة المستحمين يتولى كل عامل خدمة اثنين أو ثلاثة من المستحمين .

وكان من عادات القوم فى الحفلات والمناسبات السعيدة أن ينشروا النقود على الحاضرين . وكان هذا تقليدا فى المآدب التى يقيمها الأمير أو التى تقام له (١) .

وكان المصريون فى العصر الطولونى ، وفى العصور الإسلامية عامة ، يرون فى الآثار المصرية القديمة كنوزا يسعد بعضهم عند العثور عليها ، ويجد آخرون فى الكشف عنها حتى كانوا يسمونها «المطالب» وكان أهم ما ينشدونه التحف المصنوعة من المعادن النفيسة . وفى ذلك يقول المسعودى الذى توفى فى القرن الرابع الهجرى « ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض وتدعى المطالب » (٢) .

ويروى ابن الداية (٣) قصة عن نسيم الخادم تابع أحمد بن

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٢١

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٤ « باريس ١٨٦١ - ١٨٧٢ م »

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٦٨ - ٦٩ « طبعة الدكتور زكى حسن » .

طولون ذكر فيها « ان أحمد بن طولون ركب الى الأهرام ، وجازا وحجابه بجماعة عليهم جباب صوف ، وفي أيديهم مساح ومعاول ، فسألهم أحمد بن طولون عما يعانونه فقالوا : نحن قوم نطلب المطالب ، فقال لهم : لا تخرجوا الا بمشورتى ، ورجل من قبلنا» أى أن أحمد بن طولون لم يقبل أن تكون الحفائر والبحث عن المطالب مسألة خاصة بآفراد وانما اعتبرها مما يخص الدولة . ويذكر ابن الداية أن أحمد بن طولون أمر بالحفر فى تلك المنطقة ورتب لذلك العمال والفعلة وانهم كشفوا عن حوض مملوء دنانير . وكان عيار هذه الدنانير أجود من الدنانير العباسية الجيدة . ويقال ان أحمد بن طولون تشدد فى عيار نقوده بعد ذلك .

ويتضح لنا مما وصلنا من وثائق أو عقود زواج من القرن الثالث الهجرى أنها كانت تحرر من أكثر من نسخة واحدة .

ونستنبط مما وصلنا من عقود الزواج بيانات كثيرة عن الخطوبة والشهود والمهر المعجل والمؤخر . كذلك كان يذكر فى عقود الزواج وصايا بحسن الصحبة والمعاشرة والأمر بامساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، واشترط من جانب الزوجة أن يكون لها حق طلاق أى امرأة يتزوجها الزوج بعدها ، ويبيع أى جارية يتخذها بعد زواجهما (١) .

Agrohman : Arabic Papyri in the Egyptian Library, vol. I (1)
p. 65—121

٧ - الحياة العقلية :

كانت الحركة العلمية والثقافية في مصر الطولونية حلقة مستمرة مزدهرة بين عصر الولاة في مصر الاسلامية العربية وبين ما بعد الطولونيين . والواقع أن استقلال مصر على يد الطولونيين شجع الحركة العلمية الى حد كبير اذ كان أحمد بن طولون ، مثل غيره من الأمراء المستقلين عن الخلافة العباسية ، يريد أن تكون امارته منافسة للخلافة العباسية في العلوم والفنون وغير ذلك من ضروب الحضارة والتمدن . ونحن نعلم أنه بعد فتح العرب لمصر بدأت مصر تشترك مع سائر الولايات الاسلامية في الأخذ بالعلوم الفقهية والدينية الاسلامية وأصبحت مصر مركزا علميا هاما خصوصا في أواخر عصر الولاة ، فكان يفد اليها الطلبة لتلقى العلم وخاصة من افريقية والمغرب والأندلس . كذلك ظلت الاسكندرية مركزا للثقافة اليونانية والرومانية ولم يتعرض المسلمون لمدرسة الاسكندرية أو للاديرة التي كانت مراكز الثقافة المسيحية في مصر . ولكن مدرسة الاسكندرية فقدت الكثير من مركزها العلمي لأن كثيرا من علماء الروم غادروا مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح . أما الأقباط فانهم لم يهتموا اهتماما كبيرا بدراسة الثقافة اليونانية والرومانية . واتجه أغلب العرب ، والأقباط الذين أسلموا ، الى دراسة العلوم الاسلامية الدينية . ولكن ليس معنى هذا الانصراف كلية عن العلوم القديمة ، فرى ابن الداية يشير في كتاب

المكافأة الى اتفاعة بالثقافة اليونانية وافادته منها . ويبين أنه مغرم
بافلاطون بصفة خاصة ويقتبس من حكمه .

وكان أحمد بن طولون مشغولاً بمجالسة الفقهاء وأهل العلم
مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم . وبلغ به ولعه بالحديث
وسمعه وروايته أنه كان ينتقل الى مجلس القاضي بكار بن قتيبة
طلباً للمزيد .

وكانت مدينة القطائع في عهد الطولونيين حافلة بالعلماء
والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين نذكر منهم على
سبيل المثال القاضي بكار بن قتيبة الذي كان من أبرز قضاة
المسلمين وأعلمهم بالفقه الاسلامي . ومن أشهر المحدثين الذين
شهدوا بداية حياة ابن طولون في مصر الربيع بن سليمان بن داود
الأزدى الجيزي تلميذ الامام الشافعي . ويذكر المؤرخون أن
أحمد بن طولون أعطاه في أول درس ألقاه في جامع كسا به ألف
دينار .

ومن فقهاء المالكية الذين شهدوا هذا العصر محمد بن عبد الله
ابن عبد الحكم . وكان محمد فقيهاً في مذهب الامام مالك . ولما
قدم الامام الشافعي مصر صحبه محمد وتفقه عليه فلما مات
الشافعي في سنة ٢٠٤ هـ ، رجع محمد الى مذهب الامام مالك
وانتهت اليه الرياسة بمصر . وكان محمد هذا فقيه مصر في عصره
على مذهب مالك كما رسخ في مذهب الامام الشافعي وتلمذ عليه

كثير من أهل المغرب والأندلس . وكان له مصنفات كثيرة وتوفي
سنة ٢٦٨ هـ .

ومن ملامح النهضة الأدبية في مصر أن حفلَ العصر الطولوني
بِطائفة من أئمة الكتاب مثل ابن عبد كان ، والحسن بن رافع ،
ويعقوب بن اسحق ، وجعفر بن عبد الغفار المصري ، وأحمد بن
أيمن ، واسحق بن نصير .

ووضح ازدهار الدراسات اللغوية في العصر الطولوني على يد
الوليد بن محمد التميمي النحوي المعروف بولاد (١) . كذلك
أنجبت المدرسة اللغوية أحمد بن جعفر الدينوري صاحب كتاب
« المذهب في النحو » . كذلك شهدت مدرسة اللغة ظهور أبي
جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل صاحب كتاب « معاني
القرآن ومنسوخه » ، ومحمد بن حسان النحوي .

أما في ميدان الدراسات التاريخية فقد شهدت السنوات الأولى
من مجيء أحمد بن طولون إلى مصر أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية
وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح
مصر » والذي توفي سنة ٢٥٧ هـ ، وهو أخو الفقيه المالكي محمد
أبن عبد الله بن عبد الحكيم . والحق أن ابن عبد الحكيم يمت إلى
عصر الولاة أكثر مما يمت للطولونيين . ولكن من أشهر مؤرخي

(١) الدكتور محمد كامل حسين : في الأدب المصري الإسلامي من الفتح
الإسلامي إلى دخول الفاطميين . ص ٣٨ « القاهرة ١٩٦٦ م » .

الدولة الطولونية أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية .
وقد وصلنا من كتبه كتاب المكافأة وسيرة أحمد بن طولون وسيرة
أبى الجيش خمارويه . ويتبين من كتابة ابن الداية انه كان ذا ثقافة
واسعة فهو كاتب وشاعر وعالم بالهندسة والفلك . وقد اكسبته
صلته بالأمراء ورجال الدولة والكتاب والعمال والفلاحين ، خبرات
اجتماعية واسعة ونظرة ثاقبة فى صميم المجتمع المصرى ظهرت
فيما كتبه فى كتابه المكافأة .

وقد شجع أحمد بن طولون ومن جاء بعده من الطولونيين
الشعراء الذين كانوا أهم وسيلة للاعلام فى تلك الأزمنة . ويدلنا
على ذلك ما رواه المقرئى عن القاضى ابى عمرو عثمان النابلسى الذى
قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » انه رأى
كتابا لا يقل حجمه عن اثنتى عشرة كراسة ، يحوى فهرسة شعراء
ميدان ابن طولون .

واشتهرت مصر فى العصر الطولونى بالتقدم فى علم الطب ،
وكان هذا التقدم استمرارا لازدهار الطب فى العصور السابقة .

ويذكر ابن الداية فى كتابه المكافأة أنه صحب رجلا من المسلمين
الذين اشتغلوا بالطب واسمه على المتطبب المعروف بالديدان وان
هذا الطبيب « كان حسن المعرفة بكتب افلاطون ورموزه مبرزاً
فى الطب » . وقد أمدنا ابن الداية والبلوى فى حديثهما عن أيام
أحمد بن طولون الأخيرة ومرضه وخلافه مع أطبائه بالكثير من

الأخبار الطريفة عن صناعة الطب في مصر ، وعن الأطباء ومعاونيهم .
ونعرف أن طيب ابن طولون الخاص كان سعيد بن نوفل وأنه كان
حاذقا في صناعته . وكذلك يذكر البلوى أن الحسن بن زيرك
اشترك في علاج ابن طولون وأنه كان يعمد في تطيبه فضلا عن
الدواء الى اراحته وعلاجه نفسيا .

كذلك نعرف مما ذكره البلوى أن الطبيب اذا رأى حالة
مستعصية كان يرى من الأفضل ان يجتمع عدد من الأطباء للوصول
الى رأى كما تفعل نحن اليوم . ويذكر البلوى ان كل طبيب كان
له أعوان ومساعدون كان اسمهم ، الشاكريه ، وكان وظيفتهم دق
العقاقير وعجن الأدوية حسب أمر الأطباء أو نفخ النار تحت الأدوية
المطبوخة . وكان الأطباء يقومون بتركيب الأدوية اللازمة للمريض
كذلك كانت لهم وسائلهم في الفحص والعلاج كما كانوا يحددون
للمريض أنواع الأطعمة التي يتناولها أثناء مرضه (١) .

(١) انظر : البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ٣١٦ - ٣٢٩ .

الفصل الخامس عشر
ولات شار والفنون

١ - الفن الطولوني :

بعد فتح العرب لمصر قامت فيها صناعة اسلامية مصرية وفن اسلامي مصري كان للمصريين اليد الكبرى فيه ، وان كان العرب قد أفلحوا في طبعه بطابع دينهم بحيث بدأت تتميز الفنون والصناعات المصرية عما كان موجودا في مصر قبل الفتح وكان عماد هذه الفنون الاسلامية المصريون وليس العرب . وشارك المصريون أيضا في كثير من عمارة مختلف أنحاء الدولة الاسلامية ، فنعرف من أوراق بردى كوم اشقاو أن قرّة بن شريك أرسل عمالا مصريين للعمل بالجامع الأموي في دمشق ، وأرسل آخرين للعمل في جامع بيت المقدس ، وأرسل غيرهم للعمل في قصر أمير المؤمنين ، كذلك شارك المصريون في عمارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة ، وكانت كتب والى مصر قرّة بن شريك تحدد النفقة على الفعلة المصريين ، وعلى مهرة العمال منهم (١) .

وكان نقل مهرة الصناع والفنانين من اقليم الى آخر في ديار الاسلام أمرا شائعا ، وخاصة أن ديار الاسلام كانت تعتبر وحدة واحدة .

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام . ص ٢٧٨ - ٢٧٩ وما ذكره من مراجع .

ولما جاء أحمد بن طولون الى مصر وأسس الدولة الطولونية فيها نشأ في مصر ما يعرف باسم الفن الطولوني نسبة الى الطولونيين وفي الوقت نفسه نراه متميزا عما كان موجودا قبله ومقدمة لما وجد بعد العصر الطولوني في مصر الاسلامية من فنون وآثار .

ولم يكن الفن الطولوني مستقلا كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية آنذ فقد كان تابعا له الى حد كبير وفي الوقت نفسه كان منافسا له . فقد أراد أحمد بن طولون أن يتخذ لنفسه بلاطا مثل بلاط الخليفة العباسي في سامرا وبغداد بل يفوقه في الأبهة والعظمة . وأصبح البذخ والترف في مصر حديث المعاصرين حينئذ ومن جاء بعدهم ، في وقت كانت ثورة الزنج والفتن الداخلية قد استنزفت أموال الحكومة العباسية وجهودها . ومن حسن الحظ أنه وصلت الينا آثار الطولونيين وتحفهم ولم تكن كل معلوماتنا قاصرة على مذكرته المصادر التاريخية والأدبية عن عظمة الطولونيين وعلو شأن الفنون في عصرهم (١) .

٢ - مدينة القطائع :

عرفنا أن أحمد بن طولون خرج لمحاربة ابن الشيخ في الشام سنة ٢٥٦ هـ ثم ورد عليه كتاب الخليفة بالرجوع فعاد الى مصر . ثم بدأ أحمد بن طولون في تأسيس حاضرة له . وفي ذلك يقول الكندي : « وابتدأ أحمد بن طولون في بنيان الميخندان

(١) انظر : الدكتور ذكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر . ص ١٥١

فى شعبان سنة ست وخمسين ، وأمر بحسرت قبور اليهود
والنصارى وبني موضعهما .

وكان أمراء مصر أو ولايتها ينزلون القسطنطينية - مقر الحكم
العربى - منذ اختطها عمرو بن العاص فى سنة ٢١ هـ (٦٤٢م)
وبنى فيها جامع المشهور . ولما جاء جيش العباسيين الى مصر فى
سنة ١٣٢ هـ بقيادة صالح بن على العباسى وأبى عون لمطاردة
مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ولانتهاء الحكم الأموى فى
مصر ، اختط العباسيون عاصمة جديدة لمصر فى الصحراء الواقعة
شمال شرقى القسطنطينية وذلك فى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠م) وسموها
العسكر . وكان اختطاط العسكر ، اما لرغبة العباسيين فى أن
يتخذوا لأنفسهم مقرا لم يسبق اليه غيرهم ، واما لأن مروان بن
محمد كان قد أضرم حريقا خرب جانبا كبيرا من القسطنطينية ، كما
يقال فى بعض الروايات (١) . وكان ذلك الجزء من الصحراء
يعرف باسم الحمراء القصوى ولم يكن به من العمائر الا عدة
أديرة وكنائس ، وأمر أبو عون أصحابه بالبناء فيها فبنوا المحال
والاسواق والدور العديدة ثم شيد صالح بن على دارا للامارة ،
وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥م) بنى الفضل بن صالح بن على العباسى
فى ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدي جامع العسكر (٢) .

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٥٤

مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م

(٢) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٤٧ .

ولن نفوتنا أن انشاء القطائع -عاصمة أحمد بن طولون- لم يقض على العسكر أو الفسطاط . والواقع أن القطائع والعسكر لم تكونا في الحقيقة الا ضاحيتين للفسطاط أو امتدادا لها مع أن الناس حينئذ كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها كما اعتبروا القطائع بعد ذلك . وظلت الفسطاط المركز الأعظم للحياة المصرية ، بل ان المباني الحكومية القديمة لم تهجر تماما ، فالمعروف مثلا أن دار الامارة التي كان يسكنها الأمراء العباسيون في العسكر أصبحت في عصر الطولونيين « ديوانا للخراج » . واختط ابن طولون عاصمته الجديدة في المكان الواقع في سفح جبل يشكر الى الشرق من العسكر ، والشمال الشرقي من الفسطاط حيث يوجد الآن قره ميدان ، والمنشية ، وميدان صلاح الدين (١) .

وكان أحمد بن طولون حكيما في انشاء القطائع فقد أمكنه بذلك ابعاد جيشه غير المتجانس عن الاحياء العربية المصرية وتجنب بذلك ما كان ممكنا حدوثه من الشغب بسبب اختلاط جنده بالتجار وغيرهم من سواد الشعب على نحو ما حدث لجند الخليفة المعتصم في بغداد ، وكان سببا في انشاء سامرا .

وكان تفكير أحمد بن طولون في ترك دار الامارة بمدينة العسكر أو في الفسطاط يمثل اتجاهاه الجديد في الاستقلال بمصر وفي رغبته في منافسة بلاط العباسيين بالاضافة الى غرامه بالعظمة

(١) انظر : دكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر . ج ١ ص ٥٧

والأبهة . وقسم الأمير مدينته الجديدة بين جنده ورجال حاشيته
ومن احتاجوا اليهم من صناع أو تجار . فصارت لكل طائفة
قطيعة . وكانت كل قطيعة تعرف باسم من سكنها سواء أكانت
تربطهم رابطة الجنس أو رابطة العمل ، فكان هناك قطيعة الروم
وقطيعة السودان ، وقطيعة البزازين ، وقطيعة الجزارين .. الخ
وأصبح يطلق على مدينة ابن طولون اسم القطائع . ولم يكن
التخطيط أو الاسم غريبا إذ كان تخطيط القطائع يشبه الى حد
كبير تخطيط سامرا . كذلك كان يطلق اسم القطائع على مدينة
سامرا التي بناها المعتصم اللهم الا القصور الملكية .

أما القصور الطولونية فقد خربت وعفت آثارها . وأكبر الظن
أن مهندسيها نحوا في بنائها نحو قصور الخلفاء في سامرا .
وكان لقصر أحمد بن طولون عدة أبواب كبيرة ، وكان لكل
باب منها اسم يدل أحيانا على الجهة التي يؤدي إليها ، أو على
نوع الخدم وذلك كما كان متبعاً في قصور سامرا . وكان أهم
أبواب القصر الطولوني كما ذكر المقرئ في الخطط : باب
الميدان ومنه كان يمر الجند ، وباب الخاصة للمقرئين من الأمير ،
وباب الصوالة وكان يؤدي الى الميدان الكبير المخصص للعب
الصوالة ، وباب الحرم الذي كان لا يدخل منه الا النساء أو
الخضيان ، وباب الصلاة وكان يوصل الى جامع ابن طولون ، وباب
الجبل وتشرف عليه تلال المقطم ، وباب الساج نسبة الى الخشب
الذي اتخذ منه ، وباب دعناج وباب الدرmon نسبة الى حاجيتي

كانا يجلسان عندهما ، وباب السباع نسبة الى سبعين كبيرين من
الجبس كانا على جانيه .

ولم تبق القطائع مدة طويلة مقر الأمير وخدمه وحشمه
ورجال بلاطه وجيشه وحكومته فحسب ، بل مالبت أن اتسع نطاقها
وزادت عمارتها . وذكر مؤرخو مصر الاسلامية انها أصبحت
مدينة كبيرة زاهرة وأنشئت فيها المساجد الجميلة والحماسات
والأفران والطواحين والشوارع والخوانيت والمنازل وغير ذلك
مما نجده فى المدن الكبرى وامتدت عمارتها حتى اتصلت بمدينة
الفسطاط .

وقد عثرت دار الآثار العربية (متحف الفن الاسلامى الآن)
فى صيف سنة ١٩٣٢ بالتلال المجاورة لأبى السعود على اطلال
منزل طولونى واحتفظ متحف الفن الاسلامى بالزخارف الجصية
التي عثر عليها فى اطلال هذا البيت .

كذلك كشفت حفائر دار الآثار عن جدران جزء من دار كبيرة
بالآجر وعليها زخارف من الجص على النحو المتبع فى سامرا وفى
الجامع الطولونى . وحين كشفت اطلال هذا البيت ، كان يظن
فى بداية الأمر أنه ربما كانت هذه الأطلال أنقاض دار الامارة .
ولكن لا يستطيع أحد أن يجزم بذلك لأن مساحة البيت صغيرة
لاتليق بدار للامارة ، ولكن ما فيه من زخارف جصية ترجح أن
يكون صاحبه من ذوى الجاه واليسار (١) .

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر . ص ٦٣

ويظهر من تخطيط القطائع أن أحمد بن طولون لم يرد أن يجعلها مدينة حربية حصينة يغلب عليها الطابع العسكري ، مثلما كانت بغداد التي بناها أبو جعفر المنصور لتكون عاصمة للعباسيين وفي الوقت نفسه قلعة حصينة منيعة ضد أعداء العباسيين ، وإنما فرى أحمد بن طولون يتجه اتجاه الخليفة العباسي المعتصم حين بنى سامرا . اذ اتجه المعتصم في بناء سامرا الى الابداع في البناء وسائر الفنون الصناعية والزخرفية فاستقدم للمشاركة في عمارتها أعظم الصناع وأصحاب المهن ليجعلها أكبر منافس لبغداد . وكذلك فعل أحمد بن طولون في بناء القطائع ليجعلها تنافس سامرا وبغداد

وقد رأينا أن أحمد بن طولون اتخذ في جزيرة الروضة حصنا أراد أن يجعله معقلا له ولحرمة وأمواله اذا أفلح موسى بن بغا وجنوده في دخول مصر .

وكان سقوط الأسرة الطولونية ايذانا بسقوط هذه الحاضرة الجديدة وتخريبها ، ولكن ذكرها لاتزال قائمة بفضل المسجد الجامع الذي كان يقوم فيها .

٣ - جامع احمد بن طولون :

أراد أحمد بن طولون أن يكون له مسجد « جامع كبير » يتضاءل الى جانبه جامع عمرو وجامع العسكر، ويكون عنوانا لعظمة الامير ولرخاء البلاد في عصره . فاختار أحمد بن طولون مكانا

لهذا الجامع على جبل يشكر (١) لأن المصريين كانوا يعتقدون أن موضع هذا الجبل مبارك ويزعمون أن الله عز وجل كلم موسى عليه (٢) . وفضلا عن ذلك فقد كان مكان الجامع يتوسط القطائع عاصمة ابن طولون الجديدة . واختلف المؤرخون في تاريخ انشاء هذا الجامع فذكر المقرئ في الخطط ان بداية ببناء الجامع كان في سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ - ٨٧٧) وكان الفراغ منه في سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ - ٨٧٩ م) وذكر ابن دقماق وأبو المحاسن أن الشروع في تشييد المسجد كان في سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣ - ٨٧٤ م) أما الكندي فذكر أن أحمد بن طولون بدأ في تشييد مسجده في سنة ٢٦٤ هـ وأتمه في سنة ٢٦٦ هـ .

ونلاحظ ان السنين التي ذكرها المؤرخون متقاربة ولكنها تؤكد أن أحمد بن طولون لم يبدأ في منشأته العامة ومشاريحه العمرانية الا بعد أن أصبحت مصر كلها تحت سلطانه . ومع ذلك فإن الصواب أن الفراغ من بناء الجامع كان في سنة ٢٦٥ هـ . وهذا التاريخ وارد في الكتابة التاريخية التي وجدت في الجامع

(١) يذكر ابن دقماق في كتابه الانتصار لواصفة عقد الامصار ان « يشكر » كان رجلا صالحا ، اما المقرئ في الخطط والقلقشندي في صبح الاشراف فيذكران نقلا عن القاضي أن هذا الجبل نسبة الى يشكر بن جزيلة من قبيلة الخيم التي انضمت لخطتها في هذا الجبل بعد ان تم للعرب فتح مصر »

(٢) الدكتور زكي محمد حسين : الفقه الاسلامي في مصر ص ٢٨ وما ذكره من مراجع »

منقوشة بالخط الكوفي على لوح من الرخام (١) . أما مهندس
الجامع فيذكر المقرئى أنه كان رجلا نصرانيا حسن الهندسة حاذقا
بها : وأكبر الظن أن هذا المهندس كان مسيحيا من العراق ، لأنه
لو كان من مصر لما أغفل المقرئى أن ينص على أنه قبطى . ولو
كان بيزنطى الأصل لقال المقرئى انه رومى .

ولا يبعد أن يكون مهندس الجامع قد جاء الى مصر فى ركاب
أحمد بن طولون ، أو ان ابن طولون أرسل فى استدعائه عندما
عقد العزم على تشييد المسجد الجامع وغيره من الأبنية . ولا شك
أن هندسة بناء الجامع وزخارفه الجصية تدل على أن المهندس
الطولونى أتى من سامرا ، أو كان خيرا بما ازدهر فيها من العمارة
والفنون .

ويتكون جامع ابن طولون من صحن مربع مكشوف طول كل
ضلع فيه نحو اثنين وتسعين مترا ، أى أن مساحته تبلغ نحو ٨٤٨٧
مترا مربعا . وتحيط به أروقة من جوانبه الأربعة . وتقع القبلة
فى أكبر هذه الأروقة .

وبين جدران الجامع وسوره الخارجى ثلاثة أروقة خارجية
تسمى الزيادات . ويعلل ابن دقماق بناء هذه الزيادات بأنه لما
ضاق الجامع بالمصلين أمر أحمد بن طولون ببنائها . وكانت مثل

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٣٧

وما ذكره من مراجع . وانظر .

A. Grohmann : Die Bauinschrift der Moschee des Ahmed ibn Tulun
(The American University in Cairo Press 1965).

هذه الزيادات موجودة في الجامع الكبير بمدينة سامرا ، وفي مسجد ابي دلف بالعراق أيضا . ونحن نعتقد أن الباعث على بناء مثل هذه الزيادات ما ذكره ابن دقماق وهو الرغبة في تكبير الجامع وزيادته . ونعرف مما ذكره الكندي أن القاضي المصري الحارث ابن مسكين أمر ببناء زيادة غربى جامع عمرو بن العاص .

أما الجامع الطولونى فانه مشيد بالآجر أحمر داكن . ويعتقد بعض علماء الآثار أن سبب ذلك ان المهندس عراقى الأصل . وان اللبن (الطوب النيبى) والآجر خاصة من خواص العمارة في العراق لقلة الأحجار .

وذكر المقرئى وابن دقماق أن أحمد بن طولون لما عقد العزم على تشييد الجامع قال : أريد أن أبني بناء ان احترقت مصر بقى وان غرقت بقى ، فقليل له « يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار الى السقف ، ولا يجعل فيه أساطين رخام ، فانه لا صبر لها على النار » فبناء هذا البناء .

والواقع أن أقدم الأبنية الاسلامية فى مصر ، وهو مقياس النيل فى الروضة مشيد بالحجر ، ومع ذلك فان اللبن والآجر كانا معروفين فى العمارة منذ عهد الفراعنة .

ومما يلفت نظر علماء الآثار فى هذا الجامع أن أقواس الأروقة مرفوعة على دعائم ضخمة من الآجر المغطى بطبقة سميكة من الجص بدلا من الأعمدة التى كان المسلمون يأخذونها من الكنائس والمعابد القديمة . ويزعم المؤرخون أنه عندما أراد أحمد

ابن طولون بناء الجامع قدر له ٣٠٠ عمود من الرخام وقيل له انه
لا سبيل الى الحصول عليها الا اذا خرب الكنائس فى الأرياف فلم
يقبل أحمد بن طولون ذلك .

وأهم ما يمتاز به جامع أحمد بن طولون هو مئذنته أو منارته
التي تقع فى الرواق الخارجى الغربى ، وتكاد لا تتصل بسائر بناء
الجامع . وهى مشيدة من الحجر وتتكون من قاعدة مربعة تقوم
عليها طبقة اسطوانية عليها أخرى مئذنة . وأما السلالم فمن الخارج
على شكل مدرج حلزونى . وليس لهذه المنارة نظير فى البلاد
الاسلامية اللهم الا فى الجامع الكبير وفى مسجد ابي دلف فى
سامرا .

وعلماء الآثار مختلفون فى تحديد العصر الذى ترجع اليه
المنارة الحالية ، فبعضهم ينسبها الى عصر الأمير أحمد بن طولون
وينسبها آخرون الى العصر الفاطمى . ولكن الأرجح أنها من عصر
السلطان المملوكى لاجين حين عمر المسجد فى نهاية القرن الثالث
عشر الميلادى (٦٩٦ هـ) ، ومع ذلك فانها فى جوهرها صورة من
المنارة القديمة التى بنيت فى العصر الطولونى .

وقد روى مؤرخو العرب مختلف القصص عن سبب بنائها
على هذا الشكل فقالوا ان أحمد بن طولون كان هادئاً رزيناً
لا يلهو أبداً . وحدث ذات مرة انه أخذ ورقة يلهو بها ويطويها فى
يده ثم اتبه لنفسه وتعجب الجالسون معه ، فقال انما فعلت ذلك

لأنى أردت أن أبني منارة الجامع على هذا المثال ، وأمر فأتى
بالمهندس وطلب إليه تنفيذ ذلك .

والواقع أن مؤرخي العرب فطنوا الى غرابة هذه المنارة ، فهي
منسوبة دائما لابن طولون كما أنه لا توجد صلة بينها وبين منائر
العصور التالية . وأكبر الظن أنها لم تدخل فى الرسم الذى وضعه
المهندس للجامع الطولونى وانما أقيمت على هذا الشكل تحقيقا
لرغبة ابن طولون نفسه الذى كان متأثرا بما رآه من المنائر فى
سامرا (١) .

ويمتاز جامع ابن طولون بمنبره الخشبى الجميل . ويعتبر من
أجمل نماذج الصناعة الخشبية فى عصر المماليك . وقد حدث أن
امتدت يد السلب الى بعض اجزائه أو حشواته فتسربت الى أوروبا
ثم عملت لجنة حفظ الآثار العربية على استرداد ما استطاعت
استرداده منها . وبذلك أمكن تجديد المنبر كما نراه الآن . وفى
المسجد الطولونى ستة محاريب أولها المحراب الأسمى المجاور
للمنبر . أما المحاريب الخمسة فهي مصنوعة من الجص (الجبس)
ومستوية الوجوه وترجع الى العصر الفاطمى وعصر السلطان
لاجين الملوكمى .

وفى الجامع الطولونى زخارف كثيرة محفورة فى الجبس
تشبه الزخارف الجصية التى ساد استعمالها فى العصر العباسى
ولاسيما بمدينة سامرا . وقد قامت ادارة حفظ الآثار العربية

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٤٧ .

بتجديد هذا الجامع واعادته الى صورته الاولى واصابت في ذلك
نجاحا يحق لها أن تفخر به .

والحق أن جامع أحمد بن طولون يعتبر من أهم وأقدم الآثار
العربية في مصر . ذلك أن جامع عمرو بن العاصي ، وهو أقدم
جامع في مصر ، لم يبق على حاله كما كان في عصر بنائه إذ أدخل
عليه ، على مر العصور الاسلامية اصلاحات كثيرة وأضيف اليه
من الأبنية ماغير معالمه الاولى . أما جامع أحمد بن طولون فقد
احتفظ تقريبا بكل تصميماته الاولى وأصبح البناء الوحيد الذي
توافرت فيه هذه الشروط في مصر والشام قبل العصر الفاطمي^(١)

٤ - قناطر أحمد بن طولون :

شيد أحمد بن طولون في الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع
قناطر للمياه لاتزال بعض عقودها قائمة ، وكان الماء يسير في عيونها
الى القطائع . ويروي مؤرخو مصر الاسلامية - على عادة مؤرخي
العصور الوسطى - القصص والأساطير التي تشير الى سبب بناء
هذه القناطر^(٢) . والحق أن عاصمته الجديدة كانت محتاجة الى
تدبير المياه لها والى توفير كل سبل الراحة لساكنيها . وقيل ان
الناصحين أشاروا على أحمد بن طولون بأن يجرى الماء من عين
أبي خلود فاعترض قائلا بأن هذه العين لاتعرف أبدا الا باسم

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي . ص ٣٥ و ٥٤

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٤٥٧ .

ابى خليذ وانه يريد أن يستتبط بثرا تنسب اليه فعدل عن العين
الى الشرق وبنى عليها القناطر . وكانت هذه القناطر شبيهة بالقناطر
الرومانية المرفوعة وسماها المؤرخون المسلمون باسم السقاية .
ويظهر أن هذه القناطر تطلبت مجهودا كبيرا وأموالا ضخمة
وانها كانت من المتانة والابداع بمكان كبير . وأشار اليها سعيد
القاص فى عدة أبيات من قصيدته التى رثى بها الدولة الطولونية
ومن هذه الأبيات قوله :

بناء لو آن الجن جاءت بمثله لقل لقد جاءت بمستفزع نكر
وقد بنيت قناطر ابن طولون بأجر يماثل فى الشكل والحجم
آجر الجامع الطولونى . والمعروف أن الذى تولى لابن طولون
بناء هذه العيون هو المهندس النصرانى الذى شيد له بعد ذلك
المسجد الجامع .

هـ - البيمارستان :

أنشأ أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٩ هـ ، المارستان للمرضى
أو البيمارستان ، وليس المقصود أن يكون وقفا على المصابين
بالأمراض العقلية . ولم يصل اليها منه انقاض أو بقايا ولم يتعرض
المؤرخون الذين تكلموا عنه لرسمه أو تخطيطه . وشرط أحمد بن
طولون الا يعالج فيه جنذى ولا مملوك .

ونعرف أنه جعل له حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء
وأباحهما مجانا للناس من غير تمييز فى الأديان أو المذاهب . وأدخل

أحمد بن طولون فى هذا المارستان ضروبا من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر . فكان المريض اذا دخل تنزع ثيابه ويودع مامعه من المال عند أمين المارستان ، ثم تقدم له ثياب أخرى وينزل به فى مكان تتوافر فيه وسائل الراحة كذلك كان يعطى للمريض الأدوية والأغذية مجانا حتى يتم شفاؤه فاذا قدمت له دجاجة ورغيف فأكلهما أذن له بمغادرة المارستان بعد أن ترد اليه ثيابه وماله . وبلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى انه كان يتفقد بنفسه فى يوم الجمعة فيطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويشرف على المرضى ويبالغ فى مواساتهم وادخال السرور عليهم .

وروى المؤرخون أن أحمد بن طولون حبس على مسجده الجامع وقناطره ومارستانه دخل بعض الابنية .

ويذكر اليعقوبى أن الوليد بن عبد الملك الأموى (٨٦ - ٩٦ هـ = ٧٠٥ - ٧١٥ م) كان أول من عمل اليمارستان للمرضى .

٦ - انشاءات واصلاحات :

لم تكن هذه هى كل مافعله أحمد بن طولون من أجل مظاهر استقلاله أو من أجل المصريين وانما قام بعدة انشاءات واصلاحات تم عما ينتظر من أمير يريد تأسيس مملكته فى قلوب الناس .

لم يكن جامع أحمد بن طولون هو المسجد الوحيد الذى بناه ابن طولون ، اذ بنى مسجدا آخر يسمونه مسجد التنور فى أعلى

جبل المقطم ، بعد أن ضاق جامع العسكر بالمصلين من جند الأمير وعامة الشعب .

ويذكر المؤرخون العرب أن مسجد التنور هو موضع تنسور
فرعون ، كان يوقد له عليه ، فاذا رأوا النار علموا بركوبه فاتخذوا
له ما يريد ، وكذلك اذا ركب منصرفا من عين شمس . ويقال ان
اقنور فرعون لم يزل فى هذا الموضع بحاله الى أن خرج اليه قائد
من قواد أحمد بن طولون يقال له وصيف قاطرميز فهدمه وحفر
تحتيه .

ويظهر أنه ظن أنه سيجد مالا تحته ولكنه لم يجد شيئا . ويظهر
أيضا أن مسجد التنور لم تقم فيه الجمعة . والمعروف أنه منذ فتح
مصر كانت هناك مساجد للصلاة ولكن لا تجمع فيها الجمعة وكانت
هناك مساجد جامعة تقام فيها الجمعة .

ولما قدم أحمد بن طولون الى مصر كانت الجمعة تقام فى
جامع عمرو بن العاص وجامع العسكر الى أن بنى هو مسجده
الجامع على جبل يشكر .

ويذكر الشاعر الطولونى سعيد القاص مسجد التنور فى
الآيات الآتية من قصيدته المشهورة التى يعدد فيها مناقب الدولة
الطولونية (١) :

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٥ ،
Zaky M. Hassan : Les Tulunides p. 273 et suiv.

الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٢٦

وتنور فرعون الذي فوق قسلة
على جبل عال على شاهق وعر
بنى مسجدا فيه يروق بناؤه
ويهدى به فى الليل ان ضل من يسرى
تخال سنا قنديله وضيائه
سهيلا اذا ما لاح فى الليل للسفر



وقام أحمد بن طولون بعدة اصلاحات هامة منها اصلاح
مقياس النيل بالروضة وتطهير الخليج الذى يربط الاسكندرية
بالنيل ، واصلاح منارة الاسكندرية .

وقد استغرقت هذه الأعمال البنائية مدة طويلة وأموالا كثيرة
ولذا نرى أحمد بن طولون لأستطيع ارسال الأموال السنوية الى
الخلافة كالمعتاد . وتحقق ندى الخلافة ما كان يقال عن مطامعه
واغراضه فى الاستقلال بمصر . ولهذا يبدأ الخلاف والنضال
بين الموفق أخ الخليفة المعتمد وصاحب الأمر والنهى فى الخلافة
وبين أحمد بن طولون .

ولم يعد دخل مصر يتسرب الى بيت مال الخلافة فى المدينة
أو دمشق أو بغداد أو سامرا ، أو الى جيوب الولاة وأصحاب
الاقطاع بل بقيت أموال مصر فيها وبدأ وادى النيل حياته
لنفسه فى مجموعة الأمم الاسلاميه .

الفصل السادس عشر
أخلاق أحمد بن طولون

اشتهر أحمد بن طولون بالتقوى ، ولكن سلوكه وتاريخ حياته
يحملنا على القول بأنها لم تكن تقوى صادقة كتقوى عمر بن
الخطاب أو القاضى بكار ، ولكنها كانت تقوى من النوع الذى
اعتاد كثيرون من الأمراء فى تاريخ الشرق أن يتخذوه دعامة
لعروشهم واستجلابا لقلوب رعاياهم .

حقا انه تلقى فى صباه تعليما دينيا ، ولكننا نظن أن حياته
السياسية جعلته يتحول الى مكيافيلية (١) تلزم مؤسسى الأسرات
فتشييده المسجد والقناطر والمستشفى وعلان الجهاد ضد الروم
والموفق ، كل هذا لم يكن الغرض منه مرضاة الله بقدر ما كان
المقصود به تحقيق سياسة ابن طولون واستجلاب رضاء رعاياه عن
هذه السياسة . وحسبنا انه كاد مرة يأمر بجلد خطيب نسي أن
يدعوه فى الخطبة بعد الدعاء للخليفة وولى العهد .

أما الجهاد الذى اتخذه حجة للسير الى الشام فانه لم يمنعه
عند وصوله الى الثغور من أن يفاوض مندوبى الروم ويعقد معهم
صلحا .

وفضلا عن ذلك فان المجلس الذى جمعه فى دمشق والقرار
الذى استصدره بعزل الموفق والجهاد ضده لانقاذ المعتمد ، كل

* (١) مكيافيلى هو صاحب كتاب « الامير » الذى قدمه الى امير فلورنسا .
وتوفى ميكافيلى فى القرن السادس عشر الميلادى . ويدور كتاب « الامير » حول
فكرة أساسها أن الغاية تبرر الوسيلة ، وأن الامير يجيز لنفسه الوصول الى
تثبيت حكمه وسياسة أمته بأية وسيلة من الوسائل بغض النظر من قريبها أو
بعدها من المثل الاخلاقية العليا .

ذلك لم يمنعه من أن يكون مستعداً ، قبل وفاته بزمان قصير ، لأن
يعترف بالموفق اذا قبل الموفق أن يعترف بسلطانه وما حصل عليه
من فتوحات ، أو كما يقولون *statu quo*

وقد ذكر كثير من المؤرخين أن أحمد بن طولون كان رجلاً
ذكياً بعيد النظر صادق الفراسة وأيدوا ذلك ببعض النواذر التي
نجد أن معظمها من النوع الذي يرد كثيراً في التاريخ الاسلامي
منسوبة الى غير أحمد بن طولون من الرجال . كما ذكر ابن الداية
نقلاً عن تركان بن أحمد بن طولون ان صاحبنا كان يعس بالليل ،
أو يتنكر ويظوف في انحاء القطائع والفسطاط ، كما قيل عن عمر
ابن الخطاب في المدينة وهارون الرشيد في بغداد ثم الظاهر بيبرس
في القاهرة .

أما أعظم صفات أحمد بن طولون أثراً في حياته السياسية
فكرمه الحاتى الذى استطاع بوساطته أن يكسب رجالاً ما كانوا
يترددون في الانضمام الى خصومه . ونذكر في هذه المناسبة
أن الخليفة المعتمد كان يضايقه من أخيه الموفق رقابته على بيت
المال أكثر من اغتصابه سلطانه ونفوذه . والظاهر أن المعتمد كان
لا يجد دائماً ما يحتاج اليه من مال . وقد كتب المؤرخ ابن الأثير
في هذا الصدد أن المعتمد « كان في خلافته محكوماً عليه ، قد
تحكم عليه أخوه أبو أحمد الموفق وضيق عليه حتى انه احتاج
في بعض الأوقات الى ثلاثمائة دينار فلم يجدها ذلك الوقت ،
فقال :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل متمتعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شيء فى يديه
إليه تحمل الأموال طمرا . ويمنع بعض ما يجبى إليه «

وأدرك ابن طولون هذا الموقف وعمل على الافادة منه فكان
يرسل الى الخليفة الهدايا والأموال سرا حتى نال عنده مكانة
عظيمة . وقد حزن المعتمد لوفاة أحمد بن طولون . وذكر الكندى
أنه رثاه بالآيات الآتية :

الى الله اشكو أسى عراني كوقع الأسسل (١)
على رجل أروع يرى فيه فضل الرجل
شهاب خبا وقده وعارض غيث أفل
شكت دولتى فقده وقد كان زين الدول

ولم يكن أحمد بن طولون كريما مع الخليفة ورجاله فحسب
بل كان يحب الاحسان والعطاء لذاتهما وليظهر غناه وثروته . وقد
ذكر ابن سعيد أن أحمد بن طولون أرسل الى المعتمد وتصدق
فى أربع سنوات بمبلغ مليونين ومائتى ألف دينار ، وأنه كان
يتصدق شهريا بألفى دينار ، وبلغت نفقات مطابخه وحيواناته ألف
دينار . وكان يوزع الأطعمة على الفقراء ويقوم المآدب الكبيرة
للفقراء على نحو ما تفعل الحكومة الآن وبعض الهيئات فى بعض
الأعياد الدينية أو الوطنية .

ومن الصفات التي جلبت لأحمد بن طولون محبة الكثيرين
واعجابهم ما امتاز به في بعض الأحيان من جميل الشعور وتقدير
الخصوم . وحسبنا دليلا على ذلك قصته مع عبيد العمرى الذين
قتلوا سيدهم ابتغاء مرضاة ابن طولون فلم يلقوا منه الا العقاب
والاعراض . ومن ذلك أيضا قصته مع الجاسوس الذي كشفه
في القسطنطينية من عيون الموفق وأتباعه ، فان ابن طولون طلب من
الجاسوس المذكور أن يترك الموفق ورجاله وأن يشتغل لابن طولون
نفسه فرفض الجاسوس قائلا انهم ضموه اليهم قبل أن يتصل به
ابن طولون وانه لا يستطيع أن يكون عليهم بعد أن كان لهم وأضاف
الجاسوس الى ذلك انه لن يعترف بشيء ولو أوقع به ابن طولون
أشد العذاب لأنه يفضل ان يموت مخلصا على أن يعيش خائنا .
وقد أعجب ابن طولون بسلوك هذا الجاسوس وخيره بين الإقامة
في أملاكه بدون أن يعمل ضده ففضل الجاسوس أن يعود الى
العراق ، وظل يذكر ابن طولون وكرم أخلاقه .

على أن كثيرا من مثل هذه الحوادث كان الحكام وكبار
الرجال يرمون به الى كسب قلوب الناس ، ولا سيما اننا نعرف
عن ابن طولون وعن غيره انهم كانوا في كثير من الأحيان يؤثرون
أن يكونوا عمليين وان يضربوا خصومهم بيد من حديد .

هذا وقد كان ابن طولون مدينا بقسط وافر من نجاحه الى
مهارته الادارية ، واستطاعته أن يبعث في قلوب أتباعه ومعاونيه

الروع والاحترام ، وبراعته فى كشف أعدائه والعمل على احباط خططهم .

وقد ذكر المؤرخون قصصا للدلالة على ذلك ، وهى كثيرة بطبيعة الحال لأن ابن طولون لم يكن يريد أن يلجأ الى القوة الا اذا أعيته الحيلة وأصبحت المسألة بالنسبة له مسألة حياة أو موت . ولقد كان شعاره فى ذلك ما اعتاد قوله من أنه يدفع بماله عن رجاله ويدفع عن نفسه برجاله .

وقد روى تابع من اتباع أحمد بن طولون فى سامرا أن سيده جعل عند كبار التجار فى تلك المدينة مبلغا وافرا من المال يقرضون منه الى كبار القواد ورجال الادارة ، وكان الموفق اذا عرض على أولئك القواد منصب الحكم فى مصر وقبله أحدهم أسرع اليه التجار مطالبين بأموالهم وقائلين له ما معناه « اذا أردت السير الى مصر فادفع دينك أولا فان الذى يذهب لقتال مائة ألف فارس لا ينتظر أن يرجع سالما » فكان فى ذلك مدعاة لخوف المرشح لمنصب الحاكم وباعثا له على القعود عن السفر . وهكذا يشل هذه الحيلة وغيرها . كان الموفق لا يستطيع ان يجد من يقبل منازعة ابن طولون فى حكم مصر . ويروى أن طيفور الذى كان عينا لابن طولون عند الموفق كتب اليه يوما يلفت نظره الى مولى من الموالى اشتهر بظلمه فى ابن طولون وسبه اياه وسعيه به . فأرسل ابن طولون الى طيفور كتابا لهذا المولى فيه انه (أى ابن طولون) ظل يبحث

زمننا طويلا عن شخص يتولى رئاسة عيونه في العراق ، وانه لم يجد أصلح منه لما اشتهر عنه من ميوله للطولونيين، وبعث اليه ابن طولون فضلا عن ذلك بألفى دينار . وعمل على أن يثير به الشبهات عند الموفق حتى سجنه وتخلص ابن طولون من هذا العدو بنفس الطريقة التي تخلص بها معاوية من قيس بن سعد حاكم مصر من قبل علي بن أبي طالب حين أثار حوله الشبهات حتى عزله علي بن أبي طالب وهو من أشد المخلصين له .

كذلك كان أحمد بن طولون شديد الحذر من أعوانه وكتابه . وكثيرا ما كان يضيف بيده الى المكاتبات الرسمية التي يكتبونها ما يشعر بلزوم المحافظة على كتمانها ، مما جعل ابن عبد كان يلاحظ في بعض الأحيان ان بعض الردود على المكاتبات الرسمية تشير الى موضوعات ومسائل لم ترد في تلك المكاتبات كما حررها بنفسه ، ولم يكتشف طريقة الأمير في هذا الصدد الا بعد مدة طويلة .

واذا أضفنا الى ذلك كله ما امتاز به ابن طولون من الشجاعة والنشاط والعلم فهما كيف اتفق المؤرخون على ان ابن طولون كان رجلا ممتازا . ولكننا نذكر في هذه المناسبة انهم يصورونه لنا صورة نلمح فيها الرغبة في الاعلاء من شأنه ، ولا نرى فيها من الدقة والتحليل ما يرمى اليه في العصر الحاضر من يتصدون للترجمة للعظماء ترجمة علمية صحيحة .

على أن ابن طولون ليس مدينا بنجاحه الى مهارته وصفاته
الشخصية فحسب ، لانتنا نذكر حالة الخلافة وتفككها عند قيامه
وحروب الزنج التي منعت الموفق من ان يكرس نفسه لاختضاعه
وفضلا عن ذلك فان مصاهراته أفادته في التقدم . وكم كان سعيد
الحظ في أن يرى مصر تقطع الى قائد تركي تزوج والدته ثم الى
قائد آخر كان والد زوجته . وقد تزوج ابن طولون بعد ذلك
بخديجة ابنة الفتح بن خاقان الذي كان صاحب الاقطاع في مصر
مدة من الزمن قبل أن يقتل مع الخليفة المتوكل . واذا ضح ما ذكره
ابن سعيد نقلا عن ابن الداية فان الخليفة نفسه هو الذي قام بهذا
العقد ثم سحب محمد بن خاقان أخته العروس الى مصر سنة
٢٥٩ هـ (٨٧٣ م) .

الختام

وأينا في القصول السابقة كيف قامت في مصر على يد أحمد ابن طولون أول دولة عربية اسلامية . وكان هذا الاستقلال الذي قالته مصر على يديه أول استقلال لها منذ أن قضى الرومان على دولة البطالسة سنة ٣٠ ق . م في العصر القديم . وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة التي أسسها أحمد بن طولون كان قصيرا لم يزد على ٣٨ سنة (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م) الا أن الديار المصرية أخذت في الشطر الأول من هذا العهد القصير ، أعنى في عهد مؤسسها أحمد بن طولون ثم ابنه خمارويه من بعده ، يقسط وافر من التقدم .

والحق أن تاريخ العصر الطولوني هو تاريخ أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة ثم تاريخ خمارويه من بعده .

وكانت الدولة الطولونية تمثل الانتقال من عصر التبعية الى عصر الاستقلال، من عصر الوالى الذى يمثل سياسة الخلفاء وبأتمر بأمرهم ، الى عصر الحاكم القوى الواسع السلطان الذى يسنده الشعب ويسنده الجيش والاسطول والذى يعمل بما فيه الخير والمصلحة للبلد وابتائه .

وكان أحمد بن طولون مؤمنا بأن مصر للمصريين فكان كريما
مع أبنائها . ولم تشغله مشاريعه فى الاستقلال وفى تكوين
امبراطورية مصرية عربية ، عن خدمة البلد وعن القيام بمشاريع
كثيرة ينتفع بها أبناء مصر وبدأ فى عهده وادى النيل حياته لنفسه
فى مجموعة الأمم الاسلامية ولعب العصر الطولونى الكثير فى
حضارة مصر الاسلامية . وأصبحت مصر امبراطورية واسعة تمتد
الى برقة غربا والى الشام وتخوم العراق شرقا والى حدود مملكة
الروم شمالا والى النوبة جنوبا .

وأفادت مصر من حكم الأسرة الطولونية وساد فيها الرخاء
وأصبحت الخلافة العباسية تخشاها . وخطب البيزنطيون ودها
بارسال الهدايا النفيسة واطلاق الاسرى المسلمين .

وأصبحت أموال مصر تنفق فيها بدلا من أن تحمل الى الخلافة
أو ينهبها الولاة وأصحاب الاقطاع . وظهر البلاط الطولونى فى
مستوى لا يقل عن مستوى بلاط الخليفة بل كان ينافسه فى كثير
من الأحيان .

وبدأ المصريون يشتركون فى جيش بلادهم وأغلب الظن انهم
هم الموالى الذين ذكرهم المؤرخون . وشعر المصريون لأول مرة
بعد قرون طويلة بأن بلادهم أصبحت لهم وتعلقت قلوبهم بأحمد
ابن طولون كما تعلق هو بهم . بل انه تزوج بواحدة من بنات
المصريين فذكر ابن سعيد انه اتخذ زوجة من بنات الموالى يقال

لها أسماء . وحين مرض ابن طولون مرضه الأخير خرج المصريون مع نسائهم وأولادهم يدعون له بالشفاء فخرج المسلمون الى المساجد وخرج كذلك المسيحيون يدعون له كما خرج اليهود أيضا .

وكان أسف المصريين على وفاة أحمد بن طولون عظيما . وكانت قبيعتهم أعظم يوم دكت قوات الخلافة العباسية صرح دولته وأحرقوا القطائع . والحق أن قائد العباسيين الذى قضى على الدولة الطولونية أخذ المصريين بمنتهى الشدة والقسوة . ويمكننا أن نفسر العنف الذى صحب سقوط الدولة الطولونية على أنه من الظواهر التى تصحب فترات الانقلاب ، ولكن يبدو أن هذا العنف كان بسبب تعلق المصريين بالدولة الطولونية وانهم كانوا يعتبرونها دولتهم . وتجلت الحسرة على ما حل بالطولونيين وزوال الدولة الطولونية من لهجة المؤرخين المصريين فى استهجان الفظائع التى ارتكبها القائد العباسى محمد بن سليمان وجنوده الخراسانية ، ومن رثاء الشعراء المصريين للدولة الطولونية . وقد بقيت ذكرى بنى طولون ماثلة فى أذهان المصريين يتحدث عنها المؤرخون والأدباء ويتناقلونها جيلا بعد جيل .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٣	مقدمة
٥	الفصل الأول : مصادر لمؤرخ أحمد بن طولون ...
١٥	الفصل الثاني : أحمد بن طولون فى سامرا ...
٢٥	الفصل الثالث : العالم الاسلامى ومصر فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ...
٤٥	الفصل الرابع : أحمد بن طولون فى مصر ...
٧٧	الفصل الخامس : أحمد بن طولون والموفق ...
٨٧	الفصل السادس : حملة أحمد بن طولون الأولى على الشام وثورة ابنه العباس ...
١٠١	الفصل السابع : أحمد بن طولون يؤسس امراطورية مصرية اسلامية ...
١١٣	الفصل الثامن : علاقات مصر الخارجية فى عهد أحمد بن طولون ...
	١ - أحمد بن طولون والخلافة العباسية
	٢ - أحمد بن طولون والدولة البيزنطية
	٣ - أحمد بن طولون وبلاد النوبة
	٤ - أحمد بن طولون وبنى الأغلب

صفحة

الفصل التاسع : جيش مصر في عهد أحمد بن طولون ١٢٣

الفصل العاشر : البحرية في مصر في عهد أحمد
ابن طولون ١٣٣

الفصل الحادى عشر : بلاط أحمد بن طولون والبيت
الطولونى ١٤٣

الفصل الثانى عشر : الادارة فى عهد أحمد بن طولون ١٥٥
١ - الحاجب ٢ - الوزير ٣ - صاحب
الشرطة ٤ - صاحب الكورة ٥ - عامل
البريد ٦ - الجاسوسية والاستعلامات
السرية ٧ - مدير السجون ٨ - مدير دار
الصناعة ٩ - ادارة الجوازات والجمارك
١٠ - كاتب السر ١١ - صاحب الطراز
١٢ - السكة ١٣ - الموظفون الطولونيون

الفصل الثالث عشر : سياسة أحمد بن طولون
الاقتصادية ١٦٣

١ - ديوان الخراج والضرائب
٢ - الزراعة
٣ - الصناعة
٤ - التجارة

الفصل الرابع عشر : دراسات فى المجتمع المصرى
على عهد أحمد بن طولون ٢١١

صفحة

١ - القبط	...
٢ - اليهود	...
٣ - المسلمون	...
٤ - القضاء والمظالم والحسبة	...
٥ - الأمن العام	...
٦ - بعض مظاهر الحياة الاجتماعية	...
٧ - الحياة العقلية	...
٢٣٧	الفصل الخامس عشر : الآثار والفنون ...
١ - الفن الطولوني	...
٢ - مدينة القطائع	...
٣ - جامع أحمد بن طولون	...
٤ - قناطر أحمد بن طولون	...
٥ - البيمارستان	...
٦ - انشاءات واصلاحات	...
٢٥٧	الفصل السادس عشر : أخلاق أحمد بن طولون ...
٢٦٦	المحكمة ...
٢٦٩	فهرس الموضوعات ...

الدار القومية للطباعة والنشر

أعلام العرب
الكتاب القادم

محمود حمدى الفلكى

للأستاذ
أحمد سعيد الدمرداش
يُصدر في ٧ يناير ١٩٦٦

مكتبة
٣ شارع كامل
المن *

الدار القومية للطباعة والنشر